1

عشرة تلاميذ جُدد

كنت مجرّد صبي صغير عندما جلست في ذلك الصباح على مقعد طويل خارج مدرسةٍ ، يُظللني فرع شجرة (فيلسيوم) عتيدة .

كان أبي يجلس إلى جانبي ، ذراعه تعانق كتفي ، ورأسه لا ينفكّ يومئ وهو يبتسم في وجه الأهالي والأطفال الجالسين على المقعد المواجِه لنا ، كان يومًا مهمًّا : اليوم الأوّل في المدرسة الابتدائية .

كان صفُّ المقاعِد الطويلة ينتهي عند بابٍ مفتوح وخلفه حجرة الدراسةِ . . إطار ذلك الباب مقوّس ، حاله في الحقيقة حال المدرسة شبه المتداعية التي بدت كما لو أنها قد تنهار في أي لحظةٍ .

عند مدخلِ الباب وقف مُعلِّمان مثل مُضيفَين يرحبان بضيوفٍ مدعوين إلى حفلةٍ ؛ المعلّم (باباك ك ،أ ، هرفان إِفَندي نور) أو (باك هرفان) اختصارًا ، مدير المدرسة ، وهو رجل كبير في السنِّ حليم الوجه ، ومعلّمة صبية تضع جلبابًا ؛ (إيبو ن ، أ ، مُسلِمة هفصري) ، أو (بو مُس) اختصارًا ، وكانا مثل أبي يبتسمان .

لكن ابتسامة (بومُس) بدت مفتعلةً : كانت قلقة ؛ وجهها متشنجٌ وينتفض بعصبية ، لم تكفّ عن تفقُّد عدد التلاميذِ الجالسين على المقاعدِ الطويلةِ ،وجعلها اضطرابها لا تكترث بالعرق الذي سال على عينيها ، ملطِّخًا ماكياجها ومخططًا وجهها حتى ظهرت كما لو أنها خادمة الملكة في مسرحية قريتنا التراثية «دُل مُلوك» .

«تسعة تلاميذ ، تسعة فقط يا (پيماندو غورو) ، ما زلنا بحاجة إلى تلميذٍ آخر» قالت بنبرة مخنوقة للمدير ، عاينها (باك هرفان) بنظرةٍ ضبابية .

أنا أيضًا اضطربتُ ، اضطربت بسبب هلع (بو مُس) ، وبسبب شعوري بأن ذراع أبي تثقل جسمي كلّه ، ومع أنني رأيته مرتاحًا في الصباح ، إلا أن ذراعه القوية الملتفّة حول رقبتي فضحت ضربات قلبه المتسارعة .

لم يكن سهلاً على عامل منجم في السابعة والأربعين من العمر ، لديه أولاد كُثر وراتب ضئيل أن يرسل ابنه إلى المدرسة ، كان من الأفضل له أن يرسلني إلى العمل مساعِدًا في كشك بقالة صيني في السوق ، أو إلى الساحل لأشتغل عاملاً وأساهم معه في التخفيف من أعباء العائلة المادّية .

إنَّ إرسال طفل إلى المدرسة عَنَى التقيُّد لسنوات بمصاريف إضافية ، وبالنسبة إلى عائلتنا لم يكن هذا بالأمر البسيط .

يا لأبي المسكين!

لم أجرؤ على النظر في عينيه .

لم يكن أبي الوحيد الذي يرتجف اضطرابًا ، فقد أظهرت وجوه الأهالي الآخرين أنهم ، مثل أبي ، انجرفوا بأفكارهم إلى سوق الصباح ومخيلاتهم تصوّر لهم مزايا اشتغال أبنائهم عمّالاً . . . فهؤلاء الأهالي ليست لديهم قناعة كافية بأن تحصيل أولادهم للعلم الذي يستطيعون تحمّل نفقاته إلى المرحلة الإعدادية فقط ، يمكن أن يجعل مستقبل عائلاتهم مشرقًا ، وما جاؤوا هذا الصباح إلا رغمًا عنهم ، إما كي يتفادوا التوبيخ من المسؤولين الحكوميين لعدم إرسال أولادهم إلى المدرسة ، أو إذعانًا لمتطلّبات العصر التي تستلزم تحرير أولادهم من الأُميّة .

كنتُ أعرف الأطفال والأهالي الجالسين قبالتي جميعهم ، باستثناء صبي متّسخ ، شعره أحمر ومجعّد ما فتئ يحاول جاهدًا التملّص من قبضة أبيه الذي صحب ابنه لابسًا بنطلونًا من القطن الرخيص ودونما حذاء ينتعله .

أمّا بقية الأطفال فهم كلّهم من أصدقائي المقربين الذين أعرفهم جيدًا ، مثل (تراباني) القابع في حضن أُمّه ، أو (كوتشاي) الجالس إلى جانب أبيه ، أو سهارى التي غضبت من أمها في وقت سابق لأنها أرادت دخول الصفّ من فورها ، أو (شهدان) الذي لم يرافقه أحد ، ، كُنا جيرانًا ، جميعنا من جزيرة (بيليتونج) ، من أصول ملايوية ، والأفقر على الإطلاق ، وبالنسبة إلى هذه المدرسة ، مدرسة المحمدية الابتدائية ، هي أيضًا كانت الأفقر ، ، ، أفقر مدرسة قرية في (بيليتونج) ، والأسباب التي جعلت الأهالي يسعون إلى تسجيل أولادهم فيها لا تتجاوز الثلاثة : أولاً ؛ لا تتطلّب ابتدائية المحمدية دفع الرسوم المدرسية ، ويمكن أن يساهم الأهالي بأي شيء يطيقونه وفي أي وقت يستطيعون .

ثانيًا ، خشي الأهالي من ضعف نفوس أطفالهم بحيث يمكن أن يقودهم الشيطان إلى طريق الضلال بسهولة ، لذلك أرادوهم أن يحصلوا على توجيهات إسلامية منذ نعومة أظفارهم .

ثالثًا ، ليس هناك أي مدرسة أخرى ترضى باستقبال أطفالهم ،

(بو مُس) التي تضاعف تجهّمها ركّزت نظرها على الطريق الرئيس ؛ أملاً في وصول تلميذ جديد آخر ، وما رأيناه من يأسها أفزعنا ، لأن وزارة جنوب سومطرة للتربية والتعليم أصدرت بيانًا تحذيريًا قالت فيه : إذا قلّ عدد تلاميذ مدرسة المحمدية الابتدائية الجُدد عن العشرة ، فهذه المدرسة ، أقدم مدرسة في (بيليتونج) ، ستُقفل) ؛ ولذلك انتاب القلق (بو مُس) و(پاك هرفان) خوفًا من إغلاق المدرسة ، وانتاب القلق الأهالي خوفًا من التكاليف ، ونحن الأطفال التسعة العالقون في الوسط ، انتابنا القلق خوفًا من ألا يتسنّى لنا ارتيادُ المدرسة أبدًا .

في السنة الماضية بلغ عدد تلاميذ المحمدية أحد عشر فقط ، وفي هذه

السنة وصل تشاؤم (پاك هرفان) حدًّا كبيرًا ، إلى درجة أنه أعدّ سرًّا خطاب إغلاق المدرسة .

– «ننتظر إلى الساعة الحادية عشرة» قال (پاك هرفان) مخاطبًا (بو مُس) والأهالي الذين أخذ اليأس منهم مأخذه .

كنّا صامتين ، وكان وجه (بو مُس)منتفخًا بسبب دموعها المحبوسة ؛ فذلك اليوم هو يومها الأوّل في التعليم ، هو يوم لم يفارق أحلامها منذ وقت طويل جدًا ، تخرّجت قبل وقت قريب في مدرسة البنات المهنية ؛ إحدى المدارس الثانوية في عاصمة المقاطعة الحكومية ، ولا يتجاوز عمرها خمس عشرة سنة ، وإذ وقفت هناك كالتمثال تحت الجرس ، لم تفارق عيناها فناء المدرسة الفسيح والطريق الرئيس ، إلا أن أحدًا لم يظهر ، واصلت الشمس ارتفاعها إلى كبد السماء لتلاقي منتصف اليوم ، كان انتظار تلميذ جديد آخر أشبه بالقبض على الريح ، شعرت أنا والأطفال الآخرين بالحزن ، فنكّسنا رؤوسنا .

في الحادية عشرة إلا خمس دقائق لم تعد (بو مُس) قادرة على إخفاء تعاستها ، أحلامها الكبيرة بخصوص هذه المدرسة راحت تتهاوى حتى قبل أن تبصر النور ، واثنتان وثلاثون سنة من عمر (پاك هرفان) في الخدمة المجانية المتفانية التي لم تلق تقديرًا شارفت على الانتهاء .

– «تسعة فقط يا پيماندو غورو ،» قالت (بو مُس) التي ما عادت قادرة على التفكير بوضوح ، مردّدة الشيء نفسه الذي يعرفه الجميع .

أخيرًا ، انتهى الوقت ، بلغت الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق ، ومجموع التلاميذ لم يتجاوز التسعة ، نحّيتُ ذراع أبي عن كتفي ، بكت سهارى في حضن أمها ، سهارى التي كانت تضع جلبابًا وتلبس جوربًا وحذاءً وقميصًا ، وتحمل كتبًا وزجاجة ماء وحقيبة ظهر ؛ كلّها جديدة ،

مضى (پاك هرفان) إلى الأهالي وحيّاهم فردًا فردًا ، كان تأثير ذلك مدمّرًا ، ، ، ربّت الأهالي ظهره ليواسوه ، لمعت عينا (بو مُس) من الدموع المترقرقة فيهما ، ، استعدّ (پاك هرفان) ليلقي خطبته الأخيرة ، وعندما بدأ ينطق كلماته الأولى «السلام عليكم» ، صاح (تراپاني) وأشار إلى طرف فناء المدرسة مروّعًا الجميع بصياحه .

«هارون!»

التفتنا ننظر ، لمحنا من بعيد صبيًا طويلاً ونحيلاً يتجه نحونا بمشية خرقاء ، ملابسه وتسريحة شعره بمنتهى الأناقة ، يلبس قميصًا أبيض طويل الأكمام دسّه تحت بنطلونه القصير ، كانت ركبتاه تتلاصقان معًا وهو يمشي ، بحيث بدا جسمه المتهادي قُدمًا على شكل X ، تصحبه امرأة سمينة في منتصف العمر تحاول بصعوبة بالغة التمسّك به ، كان ذاك هارون ؛ صبي طريفٌ وواحد من أصدقائنا .

يبلغ هارون من العمر خمس عشرة سنة ، أي بعمر (بو مُس) ، لكنه على شيء من التخلّف العقلي ، وإذ أقبل نحونا شبه راكض بدت عليه سعادة قصوى ، كما لو أنه يتحرّق شوقًا للانضمام إلينا ، لحقته أمّه وهي تتعثّر خلفه محاولة أن تمسك يده .

لّما وقفا أمام (پاك هرفان) كانا معًا يلهثان .

«يا باپاك غورو» قالت أمّ هارون وهي تلتقط أنفاسها ، «رجاءً اِقبل هارون ، مدرسة ذوي الاحتياجات الخاصة تقع في جزيرة (بانجكا) ، ولا نملك المال لنرسله إلى هناك ، والأهم من هذا ، ارتياده المدرسة هنا أفضل من أن يبقى في البيت ويتفرّغ لمطاردة دجاجاتي» ابتسم هارون ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانٍ طويلة صفراء .

وكذلك ابتسم (پاك هرفان) ، تطلّع إلى (بو مُس) وهزّ كتفيه ، «هذا يجعلهم عشرة» .

هارون أنقذنا! صفّقنا وهلّلنا ، سهارى التي ما عادت تطيق الجلوس أكثر ، انتصبت واقفة لتعدّل طيات جلبابها ، وبحزم ألقت حقيبتها على ظهرها ، احمرّ وجه (بو مُس) ، انحسرت دموعها ، ومسحت عن وجهها العرق الذي خطّط ماكياجها وأفسده .

2

الرجل الصَّنبورة

بدت (بو مُس) كبرعم زنبقة عملاقة من زنابق جبال الهمالايا ، كان جلبابها بلون زنبقة بيضاء غضّة ، وثيابها تفوح بعطر زهرة الفانيليا ، تقدّمت نحو كلّ فرد من الأهالي الجالسين على المقاعد الطويلة ، مستهلّةً مع الجميع محادثات ودّية قبل مباشرة النداء على الأسماء ، كان الجميع قد دخل حجرة الدراسة وحصل على رفيق مقعده ، باستثنائي وباستثناء الصبي الضئيل المُتَّسخ صاحب الشعر الأحمر المجعّد الذي لا أعرفه ، عجز ذاك الصبي عن البقاء ساكنًا ، وكانت رائحته تشبه رائحة المطّاط المحروق .

– «پاك تشيك ، سيشارك ابنك مقعده مع (لينتانج)» قالت (بو مُس) لأبي .

– أوه ، هذا اسمه إذًا ، (لينتانج) ، يا له من اسم غريب!

بمجرّد سماعه القرار ، تملّص (لينتانج) من قبضة أبيه ، قفز ، وانفلت مسرعًا إلى الصفّ ليعثر على مقعده بمفرده ، كان مثل صبيٍ صغير يتطي مُهرًا ؛ مفعمًا بالابتهاج وغير راغب بالنزول عنه ، ومدركًا أنه في هذه اللحظة قد أمسكَ العِلم من قرنَيه .

اقتربت (بو مُس) من والد (لينتانج) الذي يشبه شجرة صنوبر ضربتها صاعقة ، كان داكن اللون وذابلاً ، نحيلاً وصلبًا ، كان صياد سمك ، إلا أنّ ملامح وجهه بدت أقرب إلى ملامح وجه راعٍ وديع ، توحي أنه رجل دمث طيب القلب ومتفائل ، وبخلاف صيادي السمك الآخرين ، تكلّم

بهدوء ، لكنه على أي حال ، ومثل معظم الإندونيسيين ، لم يكن مدركًا أن تلقّي العلم هو من صلب حقوق الإنسان .

كانت عائلة (لينتانج) من قرية لا تبعد كثيرًا عن البحر ، وللوصول إلى هناك ، عليك أن تمرّ عبر أربع أراضٍ من قشّ النخيل ، وهي مناطق مستنقعات تقشعرّ لها أبـدان الناسً في قريتنا ، في تلك المساحات المخيفة ، ليس من غير المألوف أن تواجه تمساحًا بحجم شجرة جوز الهند يعبر الطريق .

تقع قرية (لينتانج) الساحلية في أقصى شرق سومطرة ، ويمكن القول إنها المنطقة الأفقر في جزيرة (بيليتونج) والأكثر عزلة ، وبالنسبة إلى (لينتانج) يشبه القدوم إلى الحي الذي تقع فيه مدرستنا كالذهاب إلى منطقة مدينة حضرية ، وليصل إلى المدرسة ينبغي عليه أن يبدأ رحلته على الدراجة مع صلاة الفجر ، حوالي الساعة الرابعة صباحًا .

لا ريب في أن جميع الأجيال السابقة من رجال عائلته لم يقدروا على انتشال أنفسهم من الفقر ، وهذا ما جعل امتهانهم صيد السمك حتميًا في المجتمع الملايوي ، لكنهم عجزوا عن الاستقلال والعمل منفردين ؛ ليس لعدم وجود البحر إنما لعدم توافر القوارب ، وهذه السنة أراد والد (لينتانج) أن يكسر حلقة الأجيال تلك ، لم يشأ لابنه البكر (لينتانج) أن يصبح صياد سمك مثله ، بدلاً من ذلك سيجلس ابنه (لينتانج) إلى جانب الصبي الآخر ذي الشعر المجعّد ؛ أي أنا ، وسيركب الدراجة من وإلى المدرسة يوميًا ، وإذا كان قدره أن يصبح صياد سمك ، فإن من شأن رحلة الأربعين كيلومترًا على طريق الحصى الأحمر أن تكسر عزيمته ، كانت رائحة الحريق المنبعثة منه التي لاحظتها سابقًا تفوح من خُفّ «الكونغاي» الذي ينتعله ، خفّ «الكوتشوك» المصنوع من إطارات السيارات ، وكان ذلك الخُفّ مهترئًا بسبب دواسات الدراجة التي واظب (لينتانج) على ركوبها منذ فترة طويلة .

آه! صبي بهذا الحجم الصغير . . .

عندما لحقتُ (لينتانج) إلى حجرة الدراسة ، استقبلني بمصافحة قوية ، تكلّم باهتمام بالغ وبلا توقّف ، بلهجة أهالي (بيليتونج) المحلية وبطريقة طريفة ونموذجية على شاكلة أهالي المناطق النائية ، ولم تكفّ عيناه عن التوهّج وهو يجيل نظره بحماسة في جميع أنحاء الغرفة ، كان أشبه بنبتة القرّاص الأمريكي ، عندما تتساقط قطرات الماء على بتلاتها تطلق حبوب اللقاح ؛ وهّاجة ومزدهرة ومفعمة بالحياة .

بعدئذٍ ، أعطت (بو مُس) جميع الأهالي استمارات ليكتبوا أسماءهم ومهنهم وعناوينهم ، شُغل الجميع بملء استماراتهم ما عدا والد (لينتانج) ، بدت الاستمارة بين يديه مثل كائن غريب ، فوقف مكانه وتعبير الحيرة مرتسم على وجهه .

«إيبو غورو ،» قال ببطء ، «اعذريني لأني لا أعرف القراءة والكتابة» ،

ثم أضاف بنبرة حزينة إنه لا يعرف حتّى متى وُلد ، فجأة غادر (لينتانج) مقعده وتوجّه نحو أبيه ، أخذ الاستمارة منه وهتف : «أنا أستوفي بنود هذه الاستمارة لاحقًا يا (إيبوندا غورو) ، بعد أن أتعلّم القراءة والكتابة!»

ذُهل الجميع من رؤية (لينتانج) ، ذاك الصبي الصغير ، يدافع عن أبيه ، كان رأسه يتلفّتُ هنا وهناك مثل رأس بومة ، وبالنسبة إليه ، كانت مجموعة النثريات التي في صفّنا مُدهشةً ، على الرغم من أنها لم تتعدّ مسطرةً خشبية ، وإناءً خزفيًا على مكتب (بو مُس) هو نتاج مشروع فني لتلميذ في الصفّ السادس ، ولوحًا قديم الطراز ، ومجموعة طباشير مبعثرة في الأرض بعضها لم يبق منه سوى غبار أبيض .

راقب الرجلُ الصَّنوبرةُ اندفاع ابنه المتّقد وعلى وجهه ابتسامة حلوة ومُرّة ، وقد استوعبتُ ما رأيت ، هذا الرجل الذي لم يعرف حتى متى

وُلد ، يتخيّل قلب ولده المكسور إذا اضطر إلى مغادرة المدرسة في السنة الأولى أو الثانية من الثانوية للأسباب الكلاسيكية المعهودة كشُحِّ المال أو مطالب الحياة غير العادلة ، بالنسبة إليه كان تحصيل العلم شيئًا محفوفًا بالغموض .

لن تبارحني ذكرى ذلك الصباح لعشرات السنين الآتية ، ذلك الصباح الذي رأيت فيه (لينتانج) يقبض بطريقة خرقاء على قلم كبير غير مسنون كما لو أنه يمسك سكينًا كبيرة ، ابتاع له والده النوع الخطأ من الأقلام ؛ كان بلونين مختلفين ، إحدى نهايتيه حمراء والنهاية الأخرى زرقاء ، أليس هذا النوع من الأقلام هو ما يستخدمه الخياطون ليحدّدوا العلامات على الأقمشة؟ أيًا كان نوع ذلك القلم ، هو على أي حال ليسَ مخصّصًا للكتابة .

الدّفتر الذي اشتراه أيضًا لم يكن الدّفتر المناسب ؛ لون غلافه داكن الزرقة ، وأسطره ثلاثية ، ألم يكن ذلك النوع من الدّفاتر التي نستخدمها في الصفّ التالي ، بعد أن نتعلّم طريقة وصل الحروف؟ أمّا الشيء الذي لن أنساه أبدًا ، فهو أنني كنتُ في ذلك الصباح شاهدًا على صبي من السّاحل ، رفيق مقعدي ، يمسك قلمًا ودفترًا للمرّة الأولى في حياته ، ثم ستثبت السنون المقبلة أن كلّ ما يكتبه هو ثمرة ذهن متّقد ، وكل جملة ينطقها هي شعاع نور باهر ، ومع مرور الوقت ، سيقشع ذاك الصبي الساحلي الفقير السحابة الداكنة التي خيّمت لفترة طويلة على هذه المدرسة ، بعد أن تطوّر ليصبح أروع وأذكى شخص رأيته في جميع مراحل حياتي .

3

خزانة العَرض الزجاجية

ليس من الصعب كثيرًا وصف مدرستنا ، كانت من ضمن مئات وربّما آلاف المدارس الفقيرة في إندونيسيا ، لو نطحها تيس مهتاج لتهدّمت وانهارت .

كان لدينا معلّمان فقط لجميع الموادّ والمراحل ، ولم نحظ بلباس مدرسي رسمي ، بل لم يحتو مبنى المدرسة حتى على مرحاض ، وبما أن مدرستنا تقع عند طرف غابة ، فكلّ ما علينا فعله عندما نضطرّ إلى تلبية نداء الطبيعة هو التسلّل إلى الأحراش ، كان هناك بيت خلاء خارجي على أي حال ، لكن إذا قصدناه فلا بُدّ أن يرافقنا المعلّم ، لأن الأفاعي تندسّ فيه عادةً .

لم تتوافر لدينا عدّة الإسعافات الأولية أيضًا ، وعندما نمرض ، أيًّا كان نوع المرض ؛ إسهال أو انتفاخ أو سعال أو زكام أو حكّة ، يعطينا المعلّم حبّة كبيرة مستديرة تشبه زرّ معطف واقٍ من المطر ، لونها أبيض ومذاقها مرّ ، وبعد تناولها يشعر المرءُ بالامتلاء ، وعلى الحبة ثلاثة حروف كبيرة تشير إلى أنها مؤلفة من (الأسبرين والفيناستين والكافيين) ، كانت تلك الحبّة ذات سمعة أسطورية في جميع أنحاء وضواحي (بيليتونج) ، باعتبارها دواءً سحريًا يمكن أن يشفي أي مرض .

وهذا العلاج الشامل هو الحلّ الذي قدّمته الحكومة تعويضًا عن قلّة الأموال المخصّصة للرعاية الصحية في البيئات الفقيرة .

أما المسؤولون ومديرو المدارس أو أعضاء الجمعية التشريعية ، فنادرًا ما

زاروا مدرستنا ، زائرها الروتيني الوحيد كان رجلاً يلبس مثل (النينجا) ؛ على ظهره أنبوب كبير من الألمنيوم ، يتدلّى منه خرطوم يقطر خلفه ، ولطالما بدا لنا كأنه ذاهب إلى القمر ، كان هذا الرجل يُرسَل من قبل وزارة الصحة ليبيد البعوض بالغاز الكيميائي ، وقد اعتدنا أن نهلّل ونصيح بفرح كلما رأينا النفثات البيضاء تتصاعد كأنها إشارات دخانية .

لم تخضع مدرستنا لأي حراسة لأنها لم تحتو على ما يستحقّ السرقة ، والشيء الوحيد الذي دلّ على أن هذا مبنى مدرسة هو سارية العلم من الخيزران الأصفر ، السارية التي عُلّقت عليها لوحة خضراء مائلة تعرض شمسًا ذات أشعة بيضاء ، وفي وسطها تظهر الكتابة التالية :

س د م د
سيكولا داسار محمدية

يبدو للناظر إلى مدرستنا من بعيد كأنها في طريقها إلى التهاوي ، أعمدتها الخشبية العتيقة المائلة تكاد تنوء بحمل السقف الثقيل ، وهي بحدّ ذاتها تشبه سقيفة تجفيف لبّ جوز الهند ، وكلّ شيء فيها يدلّ على أن تشييدها لم يخضع للمبادئ المعمارية المناسبة ، ولا يمكن إغلاق نوافذها وأبوابها لعدم تناظرها مع أطرها ، إلا أن شيئًا لم يستدع إقفالها على أي حال .

أما جوّ الصفّ العام فيمكن وصفه بكلمات مثل : غير مستغَل بالكامل ، ومذهل ، وذو تأثير مُرّ ، من ضمن أمور أخرى ، يتجلّى عدم استغلاله في خزانة العرض الزجاجية المتصدّعة التي يأبى بابها أن يبقى مغلقًا إلا إذا أُقحم بينه وبين إطاره لسان ورقي ، في أي صفّ نموذجي ،

تضمّ هذه الخزانة عادة صور الخرّيجين المتفوّقين أو المدير مع وزراء التعليم أو نواب المديرين مع نواب وزراء التعليم ، أو قد تستخدم لعرض إنجازات الطلاب المرموقين في المدرسة من يافطات وميداليات وشهادات وجوائز ، لكن في صفّنا كانت خزانة العرض الزجاجية تقف في الزاوية خاوية على عروشها ، كانت مجرد شكل ثابتٍ مثيرٍ للشفقة لا يحتوي شيئًا ، لأن المسؤولين الحكوميين لم يرغبوا في زيارة معلّمينا ، ولا طلاب فيها يمكن التفاخر بهم ، ونحن بالتأكيد لم نحقّق أي إنجاز مرموق إلى الآن .

بخلاف صفوف المدارس الابتدائية الأخرى ، خلا الصفّ من وسائل الإيضاح ، وليس فيه أدوات جداول الضرب ، ولا تقويم ، ولا حتّى صورة رئيس إندونيسيا أو نائبه أو رمز دولتنا : الطائر الغريب بذيله المؤلف من ثمان رِيَش والذي ينظر دائمًا إلى اليمين ، الشيء الوحيد المعلّق في صفّنا كان مُلصقًا جداريًا خلف مكتب (بو مُس) مباشرة ، وقد عُلّق هناك ليغطي فجوة كبيرة في أحد ألواح الجدار ، ويُظهر ذاك المُلصق رجلاً كثَّ اللحية يلبس رداءً طويلاً فضفاضًا ويحمل (غيتارًا) يتدلّى بأناقة من فوق كتفه ، عيناه الحزينتان المشتعلتان توحيان أنه قد شهد بالفعل تجارب الحياة الهائلة ، وعزم بتصميم على مقاومة أنواع الشرور التي على وجه البسيطة كافّة ، كان يختلس النظر إلى السماء ، وأشكال نقود كثيرة تسقط منها نحو وجهه ، وذاك الرجل ليس إلا «روما إراما» المتخصّص بفنّ «الدانغدت» الغنائي ، مطرب الجماهير الريفية الملايوية الأوّل ؛ نسختنا من «إلفيس بريسلي» ، في أسفل المُلصق خُطّت عبارتان لم أفهمهما عندما دخلت المدرسة ، لكن في الصفّ الثاني ومع إتقاني القراءة عرفت أنهما تعنيان «روما إراما هوجان دويت!» أي «روما إراما : مطر النقود» !

ما على المرء ليقف على حالنا إلّا أن يستعرض في مخيّلته أسوأ المشاكل الممكنة بالنسبة إلى حجرة دراسة في مدرسة ابتدائية : سقف تتخلّله فجوات واسعة جدًا ، بحيث يشاهد التلاميذ الطائرات المحلّقة في السماء ، ويضطرّون إلى حمل المظلات في أثناء الدراسة في الأيام الماطرة ؛ وأرض إسمنتية تتحلّل باستمرار إلى تراب ؛ رياح عاتية تزعزع أرواح التلاميذ خوفًا من سقوط المدرسة ؛ وتلاميذ يريدون دخول الصفّ ولكن عليهم أولاً أن يطردوا الماعز منه ، هذه الأمور كلّها اختبرناها وعانيناها .

4

الدُّبُّ الأشهب

مثل مدرستنا ، من السهل وصف (پاك هرفان) الذي تميّز بشارب غليظ متصل بلحية بنيّة كثّة ، كامدة اللون وَخَطَها الشيب ، ويمكن القول باختصار إن وجهه كان مخيفًا قليلاً .

إذا حدث وسأل أي شخص (پاك هرفان) عن لحيته المتشابكة ، لن يكلّف نفسه إعطاء أي تفسير وبدلاً من ذلك يناوله كتابًا عنوانه «كيوتامان ميمليهارا جينغوت» أي «فضل الاحتفاظ باللحية» ، وقراءة التوطئة وحدها تكفّلت بجعل أي شخص يشعر بالخجل من مجرّد السؤال .

في ذلك اليوم الأول ، لبس (پاك هرفان) قميصًا بسيطًا لا بدّ أنه كان في مرحلة ما أخضر اللون قبل أن يتحوّل إلى أبيض ، فذاك القميص ما زالت فيه بقايا آثار من اللون الأصلي ، كان قميصه الداخلي مفعمًا بالثقوب ، وبنطلونه باهتًا من كثرة الغسيل ، حزامه الرخيص المتشقّق الذي يلتفّ حول خصره ، من البلاستيك المجدول ، من المرجح أنه دأب على استعماله منذ سنّ المراهقة ، في سبيل التربية الإسلامية خدم (پاك هرفان) مدرسة المحمدية لعشرات السنين بلا مقابل ، وأعال أهله من نتاج حديقة محاصيل في فناء بيته .

كان الأطفال الصغار يفزعون من رؤية (پاك هرفان) ، لأنه بدا كثير الشبه بدبّ أشهب ، إلا أنه استحوذ على قلوبنا من فوره تقريبًا ، بهرنا بكلّ كلمة قالها وكلّ حركة قام بها ، كان طيبًا ولطيفًا ، تميّز بسلوك يجمع ما بين حكمة وشجاعة رجل اختبر صعوبات الحياة المريرة ، وحصل على

علم بوسع المحيط ، بدا مستعدًّا أبدًا لتحمّل المخاطر كافّة ، ومهتمًّا حقًا بتبسيط شرح الأمور بحيث يستوعبها الآخرون بيسر .

حتّى في ذلك اليوم الأوّل ، لم يخفَ علينا أن (پاك هرفان) كان في أوج نشاطه أمام التلاميذ ، ويمكن القول إنه «غورو» حقيقي بكل الأبعاد التي تتضمّنها هذه الكلمة الهندية : شخص لا ينقل المعرفة فقط ، بل أيضًا صديق طلابه ، كثيرًا ما شهدناه يرفع طبقات صوته أو يخفضها ، ويداه تمسكان حافتي مكتبه وهو يشدّد على كلمات معينة ، ثم يفتح كفّيه ويرفع يديه كمن يؤدي رقصة المطر .

إذا طرحنا أسئلة في الصفّ ، يقبل نحونا بخطوات صغيرة وعيناه الوديعتان تتمعّنان فينا بنظرات ذات مغزى ، كما لو أننا الأطفال (الملايويون) الأغلى ، ولطالما همس في آذاننا بطلاقةٍ ما يحفظه من أبيات الشعر والآيات القرآنية ، ثم يغرق في الصمت كشخص تراوده أحلام اليقظة .

كان الدرس الأوّل الذي تلقّيناه من (پاك هرفان) يدور حول ثباتنا على الإيمان والرغبة الجامحة في تحقيق أحلامنا ، أقنعنا بأن الحياة قد تكون سعيدة حتّى مع الفقر ، ما دام المرءُ يعطي بصدقٍ أكثر مما يأخذ .

كلّما تكلّم استمعنا إليه مأخوذين ، نراقبه بشغف ، وننتظر بفارغ الصبر سلسلة عباراته التالية ، شعرت على نحو لا يُصدّق أنني محظوظ لأني هناك ، وسط أولئك الأشخاص الرائعين ، كان في تلك المدرسة الفقيرة جمال فريد ، جمال لا أقايضه بألف مدرسة فاخرة .

بعد (پاك هرفان) ، تسلّمت (بو مُس) الصفّ ، وبـدأت مرحلة التعارف ، فتقدّم التلاميذ الواحد تلو الآخر ، وعرّف بنفسه أو عرّفت بنفسها ، أخيرًا جاء دور (آكيونج) ، طُلب إليه أن يأتي إلى الأمام ، فأقبل يشعّ سرورًا ، وما بين نفَسٍ وآخر ابتسم .

– «رجاءً ، أخبرنا باسمك وعنوانك» خاطبت (بو مُس) بحنان الطفل (الهوكيني) .

رمقَ (آكيونج) (بو مُس) بنظرات متردّدة ، ثم عاد إلى الابتسام ، شقّ والده طريقه من بين حشد الأهالي ، رغبة منه في رؤية ابنه وهو يتفاعل مع المعلّمة .

لكن ، على الرغم من تكرار السؤال عليه ، لم ينطق (آكيونج) كلمة واحدة ، بل واصل الابتسام فقط .

«هيّا» حثّته (بو مُس) من جديد ، لم يجب (آكيونج) إلا بابتسامته ، استمرّ في استراق النظر إلى أبيه الذي أخذ صبره يزداد نفادًا مع مرور كلّ ثانية ، كان في وسعي أن أقرأ ما يدور في ذهن الأب : هيّا يا بني ، تجالد وقُل اسمك! على الأقل قُل اسم أبيك ، مرّة واحدة فقط! لا تجلب الخزي للهوكيين! كان وجه الأب الصيني ودودًا ، وكان مزارعًا ، من طبقة الصينيين في (بيليتونج) ، الأدنى في المكانة الاجتماعية .

حاولت (بو مُس) إقناعه بالتجاوب للمرّة الأخيرة ، «حسنًا ، هذه فرصتك الأخيرة لتقدّم نفسك ، إذا شعرت أنك لستَ مستعدًّا بعدُ ، عليك أن تعود إلى مقعدك» .

وبدلاً من ظهور علامات الامتعاض عليه لفشله في الإجابة ، ازدادت سعادة (آكيونج) ، لم يقل أي شيء على الإطلاق ، كانت ابتسامته عريضة ووجنتاه مصطبغتان بالحمرة ، الدرس الثاني : لا تسأل شخصًا يعيش في مزرعة عن اسمه وعنوانه .

وعلى هذا النحو اختُتمت مرحلة التعارف في ذلك اليوم المشهود من شهر شباط .

5

(فلو)

تعتبر جزيرة (بيليتونج) الصغيرة أغنى جزيرة في إندونيسيا ، وهي جزء من سومطرة ، لكن غناها جعلها تنفرد بنفسها ، وإلى هذه الجزيرة النائية تسلّلت حضارة (الملايو) القديمة من (ملاكا) ، وكان ثمة سرّ بقي مدفونًا في الأرض إلى أن اكتشفه الهولنديون ، ففي أعماق الأرض الموحلة تدفّق الكنز : القصدير ، القصدير المبارك ، القصدير الذي تساوي حفنة منه ما يزيد عن عشرات الدلاء من الأرز .

لو حدث وأولج المرء ذراعه في الطمي الضحل ، أو بالأحرى في أي بقعة أخرى على الإطلاق ، فإنها تعود إليه متلألئة ، ملطخة بالقصدير ، ومن قبالة الساحل ، تبدو (بيليتونج) للناظر وهي تشعّ بالقصدير اللامع كمنارة ترشد قباطنة السفن .

لطالما لمع القصدير إلى وقت متأخّر من الليل ، ولطالما أخذ استغلاله على نطاق واسع مجراه تحت كنف آلاف الأضواء التي تستخدم الملايين من كيلوواطات الطاقة .

مباركة هي الأرض التي يتدفّق فيها القصدير ، لأنه مع القصدير تظهر دائمًا مواد أخرى : (طين ، كزينوتايم ، زيركون ، ذهب ، فضّة ، توباز ، جالينا ، نحاس ، كوارتز ، سيليكا ، غرانيت ، مونازيت ، سيدريت ، هيماتيت ، بل حتّى يورانيوم) ، تحت البيوت القائمة على الركائز حيث عشنا حياتنا المحرومة ، قبعت طبقات وطبقات من الثروة ، وكنّا ، نحن ، أهالي (بيليتونج) مثل مجموعة جرذان تتضور جوعًا في مخزن يغصّ بالأرز .

المُلكية

قامت باستغلال هذا المورد الطبيعي العظيم شركة تُدعى (پ ن تيما) ، ترمز (پ ن) إلى «پيروساهان نيغري» أو شركة مملوكة للدولة ؛ وتعني تيما القصدير .

شغّلت شركة الـ (پ ن) ست عشرة جرّافة ، واستوعب المشروع جميع الأيدي العاملة في الجزيرة تقريبًا .

كانت أوعية الجرّافات الفولاذية بطول ملاعب كرة القدم ، ولا شيء يستطيع الوقوف في طريقها ، حطّمت الشعاب المرجانية ، اقتلعت الأشجار ذات الجذوع التي تماثل أحجام البيوت الصغيرة ، هدمت مباني الطوب بضربة واحدة ، وسحقت قرى بأكملها ، جالت في المنحدرات الجبلية ، والحقول ، والوديان والبحار والبحيرات والأنهار والمستنقعات ، الضجيج الناجم عنها بدا أشبه بهدير ديناصورات مزمجرة .

غالبًا ما أجرينا فيما بيننا رهانات حمقاء ، مثل كم دقيقة تستغرق الجرّافة لتحوّل أكمةً إلى أرض مستوية ، وعلى الخاسر منّا أن يعود القهقرى من المدرسة إلى البيت ، وحينئذ نبدأ في الضرب على الدفوف ونتبعه وهو يتهادى إلى الوراء مثل البطريق .

استولت الحكومة الإندونيسية على شركة الـ (پ ن) من المستعمرة الهولندية ، ولم تُصادر الأصول فقط ، بل صادرت أيضًا العقلية الإقطاعية ، وحتّى بعد أن تحرّرت إندونيسيا ، بقيت معاملة شركة الـ (پ ن) للموظفين المحليين تمييزية إلى أقصى الحدود ، وكانت المعاملة تختلف باختلاف تصنيف الطبقات .

شغل المسؤولون التنفيذيون أعلى طبقة في الـ (پ ن) ، كان يُشار

إليهم عادة باسم الموظفين ، أما أدنى طبقة فلم تتألّف في الواقع إلا من أهالينا الذين عملوا لدى هذه الشركة حمّالي أنابيب ، أو عمّال غربلة القصدير ، أو عمالاً مياومين ، ولأن (بيليتونج) أصبحت قرية شركات ، انتهجت (پ ن) شيئًا فشيئًا أسلوب الهيمنة ، كانت مثل الإقطاعية : طبقة العامل فيها لازمته دائمًا حتّى خارج ساعات العمل .

عاش الموظفون ، لا أحد منهم تقريبًا من ((الملايويين)البيليتونجيين) ، في منطقة مخصّصة للنخبة تُدعى المُلكية ، وكانت هذه المنطقة تخضع لحراسة أمنية مشدّدة ، ومحصّنة بسياجات وأسوار عالية وتحذيرات قاسية اللهجة منتشرة في كل مكان بثلاث لغات : الإندونيسية الرسمية ذات الطابع الاستعماري ، والصينية والهولندية ، تقول تلك التحذيرات ممنوع دخول من ليس له حقّ .

في أعيننا ؛ أعين أطفال القرية الفقراء ، بدت المُلكية كما تقول : اِلزم حدودك ، وقد تعزّز هذا الانطباع بصفّ من أشجار طويلة ريشية الشكل تساقِط دوما كريات حمراء بلون الدم على أسطح السيارات الفارهة المحتشدة عند مخرج المرآب .

بُنيت منازل المُلكية الفاخرة على الطراز الفيكتوري ، تتألّف ستائر نوافذها من طبقات عدّة ، كستائر مسارح السينما ، في تلك المنازل استقرّت عائلات صغيرة وعاشت بسلام مع طفلين أو ربما ثلاثة على الأكثر ، كانت تلك المنازل مسالمة دائمًا ومعتمة ومتكتمة .

اكتسبت تلك المنازل ذات الطابع الفيكتوري مظهر قلاع النبلاء بسبب قيام المُلكية على بقعة أرض مرتفعة ، وتشكّل كلّ منزل هناك من أربعة أقسام منفصلة : الحجرات الرئيسة ، ومساكن الخدم ، والمرآب ، وقسم التخزين ، وجميعها متصلة بشرفات طويلة مفتوحة تحيط ببركة صغيرة ، عند حفاف البركة تطفو زنابق الماء الزرقاء .

كانت غرف المعيشة في تلك البيوت مفروشة بالأثاث العتيق ، كأرائك الخشب الوردي الفيكتورية ، إذا جلس عليها المرء شعر أنه أقرب إلى ملك جليل ، وعلى الجدران عُلّقت لوحات غامضة وباهظة الثمن ، ولو حاولتَ يا صديقي أن تذهب من غرفة المعيشة إلى غرفة الطعام من غير أن تركّز بعناية ستضيع بسبب وفرة الأبواب في تلك المنازل .

يتناول ساكنو تلك البيوت العشاء وهم يرتدون أفضل ثيابهم ، وينتعلون أحذيتهم أيضًا ، إذا باشروا الأكل ، بعد أن يضعوا مناديلهم على أحضانهم ، لا يصدر عنهم أي صوت ، ويستمعون في تلك الأثناء إلى الموسيقا الكلاسيكية ، ربما سيمفونية «هافنر رقم 35 لموزارت» سلّم «دي» الأساس ، ولا أحد منهم يضع مرفقيه على الطاولة .

في ليلةٍ هادئة كان الجوّ في المُلكية ساكنًا جدًا ، بل كان السكون مطبقًا تقريبًا ، ومن أحد البيوت الفيكتورية ذات الأعمدة الطويلة تسرّب صوت بيانو ، هناك جلست بنت صغيرة صبيانية ، اسمها (فلوريانا) ، أو (فلو) اختصارًا ، تأخذ درس عزف على البيانو ، كانت لسوء الحظّ نعسة نوعًا ما ، وإذ أراحت ذقنها بيديها انبرت تتثاءب وتتثاءب بلا انقطاع ، بدت أشبه بقطّة نالت من النوم ما يزيد عن حاجتها .

إلى جانبها جلس والدها ، الرئيس المسؤول عن الجرّافات ، والغضب يسيطر عليه من تصرّفها ، مع شعوره بالحرج من معلّمة البيانو الخاصة ؛ امرأة جاوية مهذبة في منتصف العمر .

كان والد (فلو) قادرًا على إدارة مناوبات آلاف العمال ، وبارعًا في حلّ أصعب المشاكل التقنية ، وناجحًا في الإشراف على أصولٍ بملايين الدولارات ، ولكن عندما يواجه هذه البنت الصغيرة ، الأصغر من بين

أولاده ، يقف عاجزًا مكتوف اليدين ، وكلما رفع صوته أكثر وهو يوبخها ، ازداد تثاؤبها اتساعًا .

بدأت المعلمة الخاصّة بعزف رموز (دو ، مي ، صو ، تي) متنقّلة ما بين أربع نغمات ، مبيّنة وضعية الأصبع لكلّ رمز ، إلا أنّ (فلو) تثاءبت من جديد .

مدرسة الـ (پ ن)

كانت مدرسة الـ (پ ن) في قلب مجمّع المُلكية ، واعتُبرت دائمًا مركزًا للتميز ، مكان مَن هم الأفضل ، وفيها تنافس مئات من التلاميذ الأكفاء على أعلى مستوى ، و(فلو) واحدة منهم .

لا يختلف الفرق بين هذه المدرسة وبين مدرستنا عن الفرق بين الأرض والسماء ، كانت صفوفها مزينة بالرسوم التعليمية ، وجداول الضرب ، والجداول الدورية ، وخرائط العالم ، وموازين الحرارة ، وصور الرئيس ونائب الرئيس ، والرمز الوطني البطولي الذي يمثّل طائرًا غريبًا بذيل يتألف من ثماني رِيَش ، كانت هناك أيضًا تماثيل تشريح ، مجسّمات كرات أرضية ، ونماذج النظام الشمسي ، لم يستخدموا في تلك الصفوف الطباشير ، بل استخدموا أقلامًا خاصّة كريهة الرائحة لأن ألواحهم بيضاء .

«عندهم كثير من المعلّمين» زعق (أمران إنسياني) الذي ارتاد تلك المدرسة مرّة ، أعلمني بهذا في الليلة السابقة على أوّل يوم لي في ابتدائية المحمدية ، «كلّ مادّة لها معلّمها الخاص ، بما في ذلك الصفّ الأوّل» .

عجزت عن النوم في تلك الليلة ، أصابني الدوار وأنا أحاول إحصاء عدد المدرسين في مدرسة الـ (پ ن) ، وأيضًا طبعًا بسبب تشوّقي الشديد للذهاب إلى المدرسة في الصباح التالي .

كانت مدرسة الـ (پ ن) المقرّ الأكثر تميزًا في (بيليتونج) ، وفي أوّل

يوم مدرسي تصطف عشرات السيارات أمامها ، ويؤخذُ مقاس مئات الطلاب ، ليس فقط من أجل زي مدرسي واحد بل من أجل ثلاثة أزياء مختلفة ، في يوم الاثنين يرتدي التلاميذ قمصانًا زرقاء مطبّعة برسوم أزهار جميلة ، وتقلّهم إلى المدرسة حافلة زرقاء ، رؤية تلاميذ مدرسة الـ (پ ن) وهم يترجّلون من الحافلة ذكّرتني بصورة مجموعة أطفال بيض وجذابين ومجنّحين يحلّقون فوق الغيوم في بعض التقاويم .

لم تقبل مدرسة الـ (پ ن) إلا أبناء الموظفين الذين يعيشون في المُلكية ، وقد ضُبطت بقانون رسمي نوعية رتبة الموظفين الذين يحقّ لهم تسجيل أطفالهم في المدرسة ، وطبعًا ، على البوابة عُلِّق التحذير الذي ينصّ على عدم دخول من ليس لهم حقّ .

وهذا عَنَى أن أبناء صيادي السمك ، وناقلي الأنابيب ، والعمال الأشدّاء الذين يغربلون القصدير ، والمياومين مثل أهالينا ، وخصوصًا أبناء (بيليتونج) المحليين لا يملكون أدنى فرصة في تلقي تعليم جيد ، ولذلك اضطروا إلى الالتحاق بمدرسة المحمدية ؛ المدرسة التي يمكن أن تنهار إذا داعبتها لمسة ريح قوية .

أما ما كان يستدعي السخرية الأعظم في حياتنا فهو أن مجد المُلكية وسحر مدرسة الـ (پ ن) يموّلان مئة بالمئة من القصدير المستخرج من أراضينا ، كانت الملكية معلَمًا من معالم (بيليتونج) .

6

أولئك الذين ليس لهم حق

لا ريب في أننا لو صغّرنا الصورة لرأينا أن قريتنا قد تظهر أغنى قرية في العالم ، فأعداد المناجم المتغلغلة في جميع أنحاء أرضها تفوق التصور ، و«الروبيات» التي استثمرت منها تقدّر بالتريليونات ، في المقابل ، عندما نكبّر الصورة نجد أن ثروة هذه الجزيرة بقيت محصورة في مكان واحد ، وما انفكّت تتراكم داخل أسوار قلعة المُلكية .

على مسافة ذراع واحد فقط خارج أسوار القلعة يمتدُّ مشهد مناقض يلفت الأنظار ، إذ يبدو أشبه بدجاجة تجلس إلى جانب طاووس ، هناك عاش أهالي (بيليتونج) الملايويين ، وإن لم يكونوا قد أنجبوا ثمانية أطفال بعد ، فمحاولتهم لإنجاب هذا العدد لم تنته .

لعلّه من المبالغ فيه أن نسمّي قريتنا موطن فقراء ، لكن ليس من الخطأ القول إنها كانت قرية عمّال ؛ قرية حطّ عليها كسوف لا نهائي منذ فجر الثورة الصناعية ، فجزيرة (بيليتونج) التي كانت من أوائل المناطق التي احتلّها الهولنديون ، بقيت تعاني من الاضطهاد على امتداد سبعة أجيال ، ثم فجأة وفي طرفة عين ، تبلّلت مئات السنين من البؤس في ليلة واحدة بأمطار العذاب : وصول اليابانيين .

بعد ثلاثة قرون ونصف قال الهولنديون «وداعًا» ، وصاح اليابانيون «سايونارا» أو مع السلامة ، لسوء الحظّ لم تكن تلك النهاية السعيدة بالنسبة إلينا ، نحن أهالي (بيليتونج) ، فأرضنا انتُزِعت منّا مرّة أخرى ولكن بطريقة أكثر تحضّرًا ، حُرّرنا آنذاك إلا أننا لم نصبح أحرارًا ، كان في وسعنا أن نرى أسوار المُلكية من باحتنا .

باحتنا المكتظّة بالشجيرات والأوراق المخملية وأزهار الخبّازى كانت مملّة ، وقنوات المياه القاتمة الراكدة وأعشاش البعوض التي مال عليها سياجنا المتشابك كانت مملّة أيضًا .

كانت دارنا المتهالكة القائمة على الركائز الخشبية محشورة في المنطقة نفسها حيث ينتصب مركز الشرطة ، ومخازن الـ (پ ن) التموينية ، والمعابد الصينية ، ومكتب القرية ومكتب الشؤون الدينية ، وأماكن نوم عمّال أحواض السفن ، وثكنات البحارة ، وبرج الماء ، ومخازن (الملايويين)الصينيين ، وعشرات من «الوارنغ» أي أكشاك مقاهي الرصيف ، ومحلات الرهونات المكتظة دومًا بالزوار ، وعند طرف القرية ، يتداخل في أحد المنعطفات مسكن قبيلة (ساوانج) المديد ، كان مسكنهم طويلاً وكذلك قصتهم ، وأعِد بأن أرويها لاحقًا .

عاش (الملايويون) حياتهم كالدّمى ، تسيطر عليهم أداة صغيرة مضحكة ولكن فعّالة للغاية تسمى الصفارة ، في الساعة السابعة كلّ صباح تتبدّد السكينة مع هدير الصفارة من مكتب الـ (پ ن) المركزي ، وللتوّ يتحرّك العمّال وينفرون من مختلف أرجاء القرية ليتجمّعوا عند جانب الطريق ، ثم لا يلبثوا أن يقفزوا إلى مؤخّرات الشاحنات وينحشروا فيها لتمضي بهم إلى مواقع الحفّارات .

تعود القرية إلى هدوئها ، ولكن بعد لحظات ، تتعالى (أوركسترا) النساء حالما يبدأن في سحق التوابل ، وسرعان ما تُرجع أصوات المدقّات المرتطمة بالأجرنة الخشبية صداها من بيت إلى آخر ، ثم عندما تشير عقارب الساعة إلى الخامسة تزعق الصفارة ثانية ، فيتفرّق العمال ليعودوا إلى بيوتهم ، وعلى هذا النحو جرى الأمر لمئات السنين .

قال أبي إن عائلتنا ما زالت على الرغم من كلّ شيء محظوظة ،

واحدة من المزايا غير العادية التي يتصف بها (الملايويون) هي أنهم يعتبرون أنفسهم محظوظين دائمًا مهما ساءت ظروفهم ، هذه هي فائدة الدين .

أتذكّر شيئًا قاله لي أبي قبل أيام من التحاقي بالمدرسة ، «يا ولدي ، أساتذة المحمدية مثل (پاك هرفان) و(بو مُس) ، وكذلك صيادو السمك ، وعمّال الزيت وعمّال جوز الهند وحرّاس السدود يعيشون في ظلّ ظروف سيئة ، عليك أن تشكر الله على ما لدينا» .

تلك كانت أوّل مرّة أسمع فيها اسم (بو مُس) .

ثم قال أبي إنه سمع أن معلّمة المحمدية الشابّة الجديدة ، أرادت أن تعلّم حتى يحظى أطفال القرية بفرصتهم من التعليم .

هذه كانت المرّة الأولى التي كرّس فيها قلبي (بو مُس) بطلةً ،

كنت أنا و(سهارى و(كوتشاي) و(تراپاني) وهارون و(مهار) أولاد عمّال الـ (پ ن) ، أما (لينتانج) فابن صياد سمك ، و(بوريك) ابن حارس سدّ ، و(شهدان) ابن عامل جلفطة قوارب ، و(آكيونج) ابن مزارع صيني ،

إذا افترضنا أن عائلتي وعائلات كلّ من (سهارى و(كوتشاي) و(تراپاني) وهارون و(مهار)) كانت جميعها تمثّل حبل الفقر ، يمكن القول في هذه الحالة إن عائلات (لينتانج ، وبوريك ،و(شهدان) ، وآكيونج) كانت تقفز أحيانًا فوق هذا الحبل ، ففي فترات هدوء الرياح ، يجنون أرباحًا لا بأس بها من المحار وأشجار المطاط وبذلك يصبحون فوق مستوى الحبل ، وما يتوافر لديهم من مال يزيد قليلاً عمّا لدينا ، لكن في موسم الأمطار الطويل ، يصبحون تحت مستوى الحبل ، وبالكاد يستطيعون تدبّر أمورهم لأنهم يغدون أفقر الفقراء في الجزيرة .

وعلى الرغم من تفاوت درجاتنا في الفقر ، كانت هناك من هي أفقر منّا جميعًا ، الصبية التي أرادت أن تصبح معلّمتنا ، الصبية التي جاء أبي على ذكرها والتي لم أطق صبرًا على الاجتماع بها .

«نادوني (بو مُس)» قالت باعتزاز ، كما لو أنها انتظرت طول عمرها لتنطق تلك الكلمات ، كان ذاك يومها الأوّل في التعليم .

أكملت (بو مُس) دراستها في مدرسة البنات المهنية وتخرجت أخيرًا فيها ، تعادل هذه المدرسة في الواقع المرحلة الإعدادية ، ولم تكن مدرسة تعليم عامّ بقدر ما هي مدرسة لإعداد الصبايا كي يصبحن زوجات جيدات ، ففيها يتعلّمن الطهو والتطريز والخياطة ، صمّمت (بو مُس) على الذهاب إلى عاصمة المقاطعة (تانجونغ باندان) لتدخل المدرسة وتحصل على دبلوم يفوق في مستواه ذاك الذي تمنحه المدرسة الابتدائية حيث تنوي التعليم .

بعد تخرّجها في المدرسة المهنية عرضت عليها شركة الـ (پ ن) وظيفة أمينة مستودعات الأرز ، وهذا مركز واعد جدًا ، بل جاءها أيضًا عرض زواج من ابن رجل أعمال ، لم تستطع زميلاتها مطلقًا فهم سبب رفضها هذين العرضين المغريين .

«أريد أن أصبح معلّمة» قالت ابنة الخمسة عشر ربيعًا .

لم تقل جملتها بتحدٍ أو باستمتاع ، لكن من كان حاضرًا عندما نطقت تلك الجملة أدرك أن (بو مُس) استخرجت كلّ حرف من حروف كلماتها من أعماق قلبها ، وأن كلمة معلّمة ما فتئت تهدر في رأسها لأنها عشقت مهنة التدريس النبيلة ، كان هناك عملاق ينام في داخلها ، عملاق من شأنه أن يستيقظ حالما تلتقي بتلاميذها .

خيارها هذا جلب عليها لاحقًا مصاعب تفوق الخيال ، لا أحد آخر

أراد أن يعلّم في مدرستنا لأن التعليم فيها بلا مقابل مادي ، والعمل مدرّسًا في مدرسة فقيرة خاصّة ، اعتُبِر في قريتنا بالتحديد ، وفقًا لنكتة متداولة ، مهنة يزاولها من يفتقر إلى شيء من سلامة العقل .

على الرغم من كلّ شيء أدّى (پاك هرفان) و(بو مُس) عملهما بإخلاص ، وبعد يوم حافل من تعليم جميع الموادّ ، تتفرّغ (بو مُس) لخياطة أغطية الطعام المزركشة ، وتستمرّ في الخياطة إلى وقت متأخّر من الليل ؛ فهذا مصدر رزقها .

كان شحّ المال هو مشكلتنا التي لا تنتهي أبدًا ، وقد يسوء الأمر إلى درجة عجزنا عن شراء الطباشير ، كلّما حدث هذا ، تصحبنا (بو مُس) إلى الخارج وتستخدم الأرض كما لو أنها لوح كبير ، جميع هذه العراقيل جعلت (بو مُس) بالتدرّج وبشكل غير متوقّع معلّمة شابّة صلبة ، ذات جاذبية مميّزة في الحقيقة .

«أدّوا صلواتكم في أوقاتها ، وستنالون جزاءً وفيرًا» لطالما انبرت تنصحنا .

ألم تكن هذه الإفادة مستوحاة من سورة النساء في القرآن الكريم ، ألم يأت على ذكرها مئات المرّات مئات الواعظين في المسجد ، أما ردّدها في أغلب الأوقات أعضاء الجماعات الدينية؟ بطريقة ما ، عندما تقولها (بو مُس) ، تغدو تلك الكلمات ذات وقع مختلف وذات أثر أقوى ، حيث تدوي في قلوبنا ، وتجعلنا نشعر بالندم إذا تقاعسنا عن أداء الصلاة في وقتها .
في إحدى المناسبات اشتكينا من تسرّب الماء من سقف المدرسة ، لم تستمع (بو مُس) لشكوانا وبدلاً من ذلك أخرجت كتابًا باللغة الهولندية وأرتنا صورة في إحدى صفحاته ، كانت صورة حجرة ضيقة محاطة

بجدران سميكة مرتفعة وقاتمة ومسوّرة بقضبان حديدية ، بدت خانقة وموحية بالعنف .

«هذه كانت زنزانة (سوكارنو) في سجن (باندونج) ، هنا أمضى مدّة محكوميته ، ومع ذلك درس يوميًا وقرأ طوال الوقت ، كان أول رئيس لنا وواحدًا من ألمع الناس الذين أنتجتهم أمّتنا» .

ذهلنا ، وتبدّدت شكوانا ، من تلك اللحظة فصاعدًا لم نشتك مطلقًا من حال مدرستنا ، مرّة ، كانت السماء تمطر بشدّة ، وترعد متوعّدة ، وراح المطر ينهال علينا من السماء مباشرة ، لم نحرّك ساكنًا ، لم نرغب في أن توقف (بو مُس) الدرس ، ولم ترغب (بو مُس) في التوقّف ، فتابعنا الدرس ونحن نحمل المظلات ، أما (بو مُس) فغطت رأسها بورقة شجرة موز ، هطلت الأمطار بلا انقطاع طيلة الأشهر الأربعة التالية ، ومع ذلك لم نتخلّف يومًا عن المدرسة ، ولم نتذمّر ولا حتى قليلاً .

كان (پاك هرفان) و(بو مُس) مُعلّميْنا ، وصديقيْنا ، ومرشديْنا الروحيين ، أريانا كيف نصنع بيوت الدمى من الخيزران ، وبيّنا لنا كيف نتوضأ قبل الصلاة ، نفخا الهواء في إطارات دراجاتنا ، علّمانا أن نصلي قبل النوم ، امتصّا السم من سيقاننا عندما تلسعنا الأفاعي ، ومن وقت لآخر قدّما لنا عصير البرتقال الذي يعصرانه بأيديهما ، كانا بطليْنا المجهولين ، أميري الطيبة ، وبئرين ينضحان بالمعرفة في حقل جافّ مهجور .

7

وعده الأول

يزرع المختصّون بعلم النبات أشجار (الفيلسيوم) عادةً لاجتذاب الطيور ، وأوراق تلك الأشجار الوفيرة لا تعرف موسمًا ، غالبًا ما تزورها الببغاوات الصغيرة البديعة ، وقبل الانقضاض عليها ، تمسح تلك الطيور الخضراء الجميلة المنطقةَ من فروع شجرة «جنتيري» باسقة وراء مدرستنا ، مستكشفة إمكان وجود منافسين أو أعداء ، ثم ، بسرعة البرق تغوص تلك الطيور النهمة وتنهب ثمار شجرة (الفيلسيوم) بمناقيرها الحادّة كالأمواس ، ولا تكفّ وهي تأكل عن التلفّت برؤوسها يمينًا ويسارًا بارتياب ، الدرس رقم ثلاثة : إذا كنت فاتن الجمال فلن تعيش حياة مسالمة .

بعد الببغاوات الصغيرة يقبل سرب طيور الزرزور ، تحطّ تلك الطيور بمنتهى الاطمئنان على الشجرة لأنها تدرك أنها ليست فريسة لأحد بما في ذلك البشر ، فتستمتع ببقايا الثمار التي خلّفتها الببغاوات ، ثم تتبرّز كما يحلو لها ، حتى وأفواهها ممتلئة بالطعام ، وحينما يتقدّم الوقت إلى العصر ، تحطّ بصمت بعض طيور الخياط الرمادية على أغصان الشجرة ، هادئة وجميلة ، تلتقط اليرقات الزاحفة ، وتأكل بشراهة أقلّ من الببغاوات ، ثم تقلع طائرة بلا ضجيج كما جاءت .

نحن أيضًا ، مثل تلك الطيور ، كيّفنا أيامنا حول شجرة (الفيلسيوم) ، كانت تلك الشجرة شاهدة على أحداث طفولتنا الدرامية ، أقمنا البيوت الشجرية على أغصانها ، لعبنا الغُميضة بين أوراقها الوارفة ، على جذعها حفرنا عهود صداقتنا الأبدية ، وعند جذورها النافرة جلسنا حول (بو

مُس) نستمع إليها وهي تحكي لنا قصة «روبن هود» ، وتحت ظلالها لعبنا قفزة الضفادع وتدرّبنا على المسرحيات وضحكنا وبكينا وغنينا ودرسنا وتشاجرنا .

عندما ينتهي اليوم المدرسي نتذمّر من العودة إلى بيوتنا ، وعندما يقترب يوم الأحد ، يوم عطلتنا ، ننتظر حلول يوم الاثنين بفارغ الصبر ، على امتداد الأسبوع الأوّل كلّه لم نلمس أي كتاب .

قضينا تلك الفترة ونحن نستمع طوال الوقت إلى الحكايات التي قصّها علينا (پاك هرفان) و(بو مُس) ، أسرتنا الروايات السحرية من الأراضي البعيدة التي تتحدّث عن الحكمة وصراعات الحياة ، مثل قصص العبر الواردة في كتاب «ألف ليلة وليلة» .

ثم جاء اليوم الأوّل من الأسبوع الثاني .

حضرتُ إلى المدرسة مبكرًا جدًا ، لم أطق صبرًا على رؤية (پاك هرفان) و(بو مُس) ، دهشت لمّا فتحت باب الصفّ ، طالعتني في الزاوية بقرة ناعسة ، وفي الزاوية المقابلة رأيت (لينتانج) يجلس بهدوء تامّ ، كتلك البقرة ، على الرغم من أن بيته هو الأبعد ، حضر (لينتانج) دائمًا قبل الجميع .

في ذلك اليوم السعيد ، بعد التدرّب على إنشاد أركان الإيمان الستة بدأت (بو مُس) تعلّمنا الأبجدية .

«سبعة حروف في الأسبوع ،» قالت ، «وخلال شهر تتعلّمون الحروف كلّها ، وبعد ذلك نتعلّم طريقة كتابتها»!

بعد ثلاثة أسابيع غمرني سرور لا يوصف لأني اكتشفت حروفًا جديدة غريبة مثل O و Q و V ، نادرًا ما رأيت هذه الحروف الجديدة في الكلمات الإندونيسية ، فانبريت بيني وبين نفسي أتساءل : لماذا ابتكروا

شيئًا لا يستخدم إلا قليلاً جدًا؟ وفيما استغرقت أتنهّد متعجبًا من الأمر رفع رفيق مقعدي يده .

– «يا إيبوندا غورو ،» صاح بانفعال .

رنت إليه (بو مُس) ،

–«نعم (لينتانج)» .

–«أيمكنني الحصول على استمارة التسجيل في المدرسة؟ أريد أن أكتب بنودها» .

ابتسمت (بو مُس) ،

– «صبرًا يا (لينتانج) ،لم نتعلّم الأبجدية إلا توًا ، تأخذها لاحقًا في الصفّ الثاني عندما تتعلّم كتابة الجمل» .

– «أرغب في فعل هذا الآن يا إيبوندا ،لقد وعدت أبي» .

تردّدت (بو مُس) ،

–«أوتستطيع»؟

– «نعم يا إيبوندا ،» أجاب (لينتانج) بنبرة واثقة .

بشكٍّ واضح فتحت (بو مُس) درج مكتبها وأخرجت منه الاستمارة ، نهضنا كلّنا وتجمهرنا حول (لينتانج) .

أخذ قلمًا من وراء أذنه ، عضّ نهايته وتناول الورقة ، وفيما راقبت (بو مُس) أصابع (لينتانج) النحيلة والمتّسخة تنقش كلّ حرف من حروف الكلمات ، رأيت بدنها يقشعرّ .

اسم التلميذ : (لينتانج) ساموديرا باسارا .

اسم الأب : شهباني مولانا باسارا .

حدّقنا بِبَلَهٍ أخرس ، يستطيع (لينتانج) أن يكتب ، ويستطيع أن

يكتب جيدًا! حملقت (بو مُس) بالصبي كما لو أنه لؤلؤة في محارة ، بعد لحظة قالت برقّة ، «سبحان الله ، اشكُر الله يا (لينتانج) ، اشكُر الله يا (لينتانج) . . . .»

ملأ (لينتانج) جميع بنود الاستمارة ، ثم وبابتسامة ارتياح أعادها إلى (بو مُس) ، لم يمض علينا في المدرسة إلا شهر ، وتمكّن (لينتانج) أن يفي بوعده الذي قطعه على أبيه ، مدافعًا عن كرامته .

8

عَساكر قوس قُزَح

أصبحت الشهور سنوات ، وبدأنا نقترب من سنّ المراهقة قبل أن ندرك ذلك ، ومع أن مدرستنا الفقيرة بقيت فقيرةً ، ما فتئت روعتها تزداد في أعيننا .

وبالتدرّج غدونا أشقاءَ من خلال تجاربنا المشتركة وما ألمَّ بنا من محن ، وأصبحنا نعرف مراوغات بعضنا من الداخل والخارج .

كانت بُنية (شهدان) هي الأصغر ، لكنه أكل دومًا أكثر من أي منّا ، لم يرفض طعامًا قط ، بدا الحال كما لو أن فمه غير قادر على التمييز بين الطعام اللذيذ والطعام المقزّز ؛ فهو يبتلعه كلّه بلا استثناء ، وذاك شيء يستدعي الحيرة نظرًا إلى ضآلة حجمه ؛ إلى أين يذهب كل ما كان يلتهمه؟

أما (آكيونج) ، رفيق مقعد (شهدان) ، فكان وجوده بيننا شاذًّا إلى حدّ ما ، الله وحده يعلم ما اللوثة التي أصابت والده وهو (الكونفوشيوسي الورع) ، ليلحِق ابنه الوحيد بهذه المدرسة الإسلامية ، لا ريب في أن السبب يعود إلى حالة الفقر التي تعيشها أسرته (الهوكيانية) .

بيد أن مجرّد رؤية (آكيونج) كفيلة بجعل أي شخص يدرك لماذا قُدِّر له الانتهاء في هذه المدرسة الفقيرة ، فمظهره يدلّ على أنه منبوذ حقيقي ، بدا أشبه ب(فرانكشتاين) ، رأسه على شكل صفيحة وشعره كإبر القنفذ ، عيناه مسدّدتان إلى الأعلى مثل نصل السيف ، ولا أثر لحاجبيه تقريبًا ، أسنانه كبيرة وناتئة ، ونظرة واحدة إلى وجهه ستصيب أي معلّم بالكآبة وهو يتخيّل صعوبة حشر المعرفة في رأسه .

المثير للدهشة في هذا كلّه أن رأس (آكيونج) الشبيهة بالصفيحة استوعبت المعرفة بسرعة ، وعلى العكس من ذلك ، تبيّن أن الصبي الوديع ، صاحب الوجه اللطيف والمظهر الذكي الجالس أمامه والذي يهزّ رأسه بدراية خلال الـدروس لم يكن ذكيًا جـدًا ، وذاك اسمه (كوتشاي) .

كان (كوتشاي) سيئ الحظّ نوعًا ما : عانى في طفولته الأولى من سوء تغذية خطير ؛ حالة أثرت تأثيرًا كبيرًا على بصره ، فعيناه فقدتا قدرتهما على التركيز السوي ، وعندما يتكلّم ، يعتقد أنه ينظر إلى الشخص الذي يخاطبه ، بيد أن عينيه في الواقع تنحرفان حوالي عشرين درجة إلى اليسار .

المزيج الذي تتكوّن منه خصائص (كوتشاي) : الانتهازية والأنانية واللجوء إلى شيء من الخداع ، فضلاً عن تصرّف العارف بكلّ شيء والصفاقة ؛ولهذا السبب عيَّناه بالإجماع عريف الصفّ .

أن يتولّى المرء منصب عريف الصفّ ليس بالمهمة المستساغة ، فقد كان لزامًا على (كوتشاي) أن يبقينا هادئين ، لولا أنه هو نفسه لم يستطع أن يصمت .

في أحد الأيام ، في أثناء درس الأخلاق المحمدية ، اقتبست (بو مُس) كلام الخليفة عمر بن الخطاب ، أحد صحابة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) : أي شخص يُعيّن قائدًا ويقبل عطيةً تتجاوز أجره يرتكب معصية .

كانت (بو مُس) غاضبة بالتأكيد من الفساد المنتشر .

«وتذكّروا أن من يتولّى زمام القيادة يُكافأ أو يُعاقب بالعدل في الحياة الآخرة» .

ذُهل الصفّ بأكمله ، إلا أن صدمة (كوتشاي) بدت عظيمة ، باعتباره عريف الصفّ ، روّعه القلق من خضوعه للمُساءلة عن تصرّفاته بعد الموت ، ناهيك عن نفوره من مراقبتنا وضبطنا ، شعر أنه ما عاد قادرًا على تحمّل المزيد ، فوقف وقال بحدّة بالغة : «إيبوندا غورو ، يجب أن تعرفي أن أطفال الحمّالين هؤلاء لا يمكن ضبطهم! (بوريك) يتصرّف مثل المريض عقليًا ، سهارى و(آكيونج) يتشاجران بلا توقّف ، هذا يصيبني بالصداع ، وهارون لا يفعل شيئًا سوى النوم ، و(إكال) ، ما شاء الله يا إيبوندا ، ذاك الصبي مُرسل من الشيطان»!

«ما عدت أستطيع الاستمرار ، أطالب بإجراء تصويت لانتخاب عريف صفّ جديد» ، قال محتدًّا وقد انفجرت أخيرًا سنوات من الإحباط المتراكم فيه ، حدّق في (بو مُس) ، لكن عينيه استقرتا على مُلصق «روما إراما : مطر النقود» .

صُدمت (بو مُس) ، لا أحد أبدًا من تلاميذها سبق له أن احتجّ على شيء بهذه الطريقة المباشرة ، فكّرت للحظة ، وجاهدت لتعكس تعبير الحيادية على وجهها ، طلبت إلينا أن نكتب اسم عريف جديد على قصاصة ورق ونطويها ، «وفقًا لمبادئ الديمقراطية ، من حقّكم التصويت ، وتصويتكم ينبغي أن يبقى سرّيًا» .

طوينا قصاصات الورق وأعطيناها ل(بو مُس) ، شُحنت حجرة الدراسة بالتوتر .

فتحت (بومُس) أول ورقة وقرأت الاسم المُدوَّن فيها ، «بوريك»! صاحت ، شحب وجه بوريك وأخذ (كوتشاي) يقفز ابتهاجًا ، ليس ثمّة ما هو أوضح من هذا على أنه هو نفسه قد صوّت لبوريك .

«الورقة الثانية» قالت (بو مُس) ، «(كوتشاي)»!
هذه المرّة كان بوريك هو من راح يقفز فرحًا .
«الورقة الثالثة . . . (كوتشاي)»!
ابتسم (كوتشاي) بمرارة .
«الورقة الرابعة . . . (كوتشاي)»!
«الورقة الخامسة . . . (كوتشاي)»!
وهكذا استمرّ الأمر إلى الورقة التاسعة .
كان هناك تسع قُصاصات فقط لأن هارون لا يُحسن الكتابة ، ومع ذلك أصرّت (بو مُس) على احترام حقوقه ، رفعت نظرها نحو هارون ، بادرها هارون بابتسامته المُميزة كاشفًا عن أسنانه الطويلة الصفراء ، وصاح بحدّة ، «(كوتشاي)»!
خارت قوى (كوتشاي) وهو يُقرّ بهزيمته .

اعتاد أميرنا (تراپاني) أن يجلس عند الزاوية ، كان تعويذة سعد صفّنا ورائعًا روعةَ الطائر الخيّاط الرمادي ، رام الكمال في كلّ شيء وتميّز بوسامة الوجه .
شعره وبنطلونه وحزامه وجواربه وحذاؤه اللامع لطالما بدا كلّ ذلك نظيفًا ومهندمًا ولا تشوبه شائبة ، فاحت منه دائمًا رائحة طيبة ، وحتى قميصه لم يحدث أن نقص منه زرّ واحد .
لم يتكلّم (تراپاني) إلا عند الضرورة ، وإذا فعل انتقى كلماته بعناية ، عهدناه مهذّبًا ، ومواطنًا شابًا واعِدًا ، ونموذجًا لوعد الكشافة «داسا دارما براموكا» ، أراد أن يصبح معلّمًا ويقصد المناطق النائية المعزولة عندما يكبر ، ليساعد على تحسين التعليم وظروف الحياة في مناطق (الملايويين)

المتخلّفة ، كل شيء في حياة (تراباني) بدا مستوحى من نشيد «واجب بالأجر» الذي يدور حول محاربة الأمية .

كان (تراباني) مقرّبًا جدًا من أمّه ، لم يثر اهتمامه أي نقاش إلا ذاك الذي يتعلّق بأمه ، ربّما لأنه الصبي الوحيد بين ست بنات .

سهارى ، البنت الوحيدة في صفّنا كانت تشبه الببغاوات الصغيرة ؛ حازمة ومباشرة ، من الصعب إقناعها وليس من السهل التأثير فيها ، من خصائصها الأخرى البارزة الأمانة ، لم تكن تكذب قطّ ، حتى لو اضطرّت إلى المشي على خشبة فوق بحر من النار المشتعلة ، ويمكن أن تنقذ كذبةٌ حياتَها ، لن تتسرّب من فمها ولا كلمة واحدة غير صادقة .

تبادل (آكيونج) وسهارى العداء ، وكثيرًا ما جرى بينهما خصام هائل ، ثم يتصالحان ، وبعد ذلك يعودان إلى الخصام مجددًا ، كما لو أنه مقدّر عليهما البقاء دائمًا على طرفي نقيض ، مرةً ، أتى (تراباني) على ذكر كتاب رائع : «غرق سفينة فان دير ويجك» ، رواية «بويا هامكا» الأدبية الأسطورية .

«أنا أيضًا قرأت هذا الكتاب» علّق (آكيونج) بغطرسة ، «آسف ، لكنه لم يعجبني ، فيه أسماء وأماكن كثيرة جدًا ، وصعب علي أن أتذكّرها كلّها» .

سهارى التي قدّرت دائمًا الأدب الجيد شعرت بالإهانة فعوت في وجهه ، «ما شاء الله! بأي حق تنتقد الأدب الممتاز يا (آكيونج)؟ لو كتب (بويا) كتابًا سمّاه الصبي السيئ الذي يسرق الخيار ، ربّما وجدته يلائم ذوقك الأدبي»!

من ناحية أخرى تعاملت سهارى مع هارون برقة .

هارون الذي كان حسن السلوك ، هادئًا ، وسريع الابتسام ، عجز عجزًا

كاملاً عن استيعاب الدروس ، في أيامنا هذه يسمّى ما يعاني منه هارون «متلازمة داون» ، حينما تشرح (بو مُس) الدرس ، يجلس هارون بهدوء والابتسامة لا تفارق شفتيه .

عندما تحين استراحة بعد الظهر ، تجلس سهارى مع هارون دائمًا تحت شجرة (الفيلسيوم) ، ارتبط الاثنان بحبل عاطفي فريد من نوعه كتلك الصداقة الغريبة غير المألوفة التي تنشأ بين الفأرة والفيل ، كان هارون يتحمّس دائمًا لقصّ حكاية قطّته المخططة بثلاثة ألوان والتي ولدت ثلاث قطط مخطّطة أيضًا بثلاثة ألوان ، وذلك في اليوم الثالث من الشهر ، ولم تتوقّف سهارى قطّ عن الاستماع له بصبر ، مع أن هارون روى هذه القصّة يوميًا ، مرارًا وتكرارًا ، آلاف المرات ، على مدار السنة ، وسنة بعد سنة .

كان العدد ثلاثة مقدّسًا حقًّا بالنسبة إلى هارون ، وقد ربط كلّ شيء بهذا العدد ، وترجّى (بو مُس) لتعلّمه كيف يكتبه ، وبعد سنوات من الجهد الدؤوب ، نجح أخيرًا في كتابته ، وهكذا أصبحت جميع أغلفة كتبه المدرسية مزينة برقم ثلاثة جميل وملون ، كان مهووسًا بالعدد ثلاثة ، وفي كثير من الأحيان انتزع أزرار قميصه مبقيًا على ثلاثة منها فقط ، ارتدى دائمًا ثلاثة جوارب بعضها فوق بعض ، وامتلك ثلاث حقائب ، ووضع في كل حقيبة ثلاث قناني من صلصة الصويا ، ولديه أيضًا ثلاثة أمشاط ، ولمّا سألناه عن سبب شغفه بالرقم ثلاثة ، تفكّر لبرهة ثم أجاب بمنتهى الحكمة ، كأنه زعيم قرية يعطي نصيحة دينية ، «يا رفاقي» ، هتف بنبرة مَن عنده علم سابق : «الله يحبّ الأعداد الفردية» .

كثيرًا ما تأمّلت وجه هارون محاولاً استشفاف ما يجري في رأسه ، وكلما رآني أفعل هذا ابتسم ، لم يغب عنه أنه أكبرنا سنًا ، وقد عاملنا

باهتمام كما لو أننا كلّنا أخوته ، جاءت أحيانٌ كان تصرّفه فيها مؤثرًا للغاية ، مرةً ، على نحو غير متوقّع ، أحضر إلى المدرسة رزمة كبيرة وأعطى كلّ واحد منا درنة «كلاديوم» مسلوقة ، حصل كلّ واحد منّا على واحدة ، أما هو فأخذ ثلاثًا ، ومع أن تصرّفاته تشبه كثيرًا تصرفات الناضجين ، إلا أنه كان في الحقيقة طفلاً محبوسًا في جسد شخص بالغ .

كان التلميذ السابع فارسنا الأشمّ ، صاحب الدرع اللامع (بوريك)في البداية ، بدا (بوريك) مجرّد تلميذ عادي ، ولا غرابة في تصرفاته ، لكن مجرى حياته تغيّر إلى الأبد بعد أن حظي بمحض الصدفة بزجاجة قديمة لمنتج ينمّي الشعر من مكان ما في شبه الجزيرة العربية .

على تلك الزجاجة صورة رجل يلبس سروالاً أحمر اللون ؛ رجل طويل القامة وقوي وجسمه ضخم ومكسوّ بالشعر مثل الغوريلا .

منذ ذلك الحين ، ما عاد (بوريك) مهتمًا بأي شيء إلا بزيادة حجم عضلاته ، ونجح في مسعاه بسبب العمل الشاقّ والتمرين ، واستحقّ عن جدارة لقب (شمشون) ؛ لقب نبيل حمله باعتزاز .

ذاك بلا ريب غريب ، لكن (شمشون) على الأقلّ اكتشف نفسه في سنّ مبكرة وعرف تمامًا ماذا يريد أن يصبح لاحقًا ؛ سعى بلا تقاعس للوصول إلى هدفه ، بطريقة ما تخطّى مرحلة البحث عن الهوّية التي تجعل المرء عادة يشكّ بنفسه إلى أن يصبح أكبر سنًا ، كان (شمشون) أفضل حالاً من كثير من الناس الذين لا يكتشفون ذواتهم فيسلكون درب الحياة بشخصيات لا تمت لهم بصلة .

تركّز هوسه على كمال الأجسام وفُتن أيّما افتتان بصورة الرجل صاحب العضلات المفتولة ، في أحد الأيام أغراني لألحق به ، وكان الفضول قد نال مني مناله لعجزي عن فهم السرّ الكامن وراء نفخ عضلات الصدر .

نحن كنّا عشرة ، بدونا أشبه برخويات صغيرة نتشبّث ببعضنا ونتلاصق معًا لنحمي أنفسنا من أمواج بحر المعرفة العاتية ، كانت (بو مُس) الدجاجة الحاضنة بالنسبة إلينا ، وإذ أنظر في وجوه رفاقي واحدًا واحدًا أرى : هارون بابتسامته الهنية ، (تراپاني) الوسيم ، ((شهدان)) الصغير ، (كوتشاي) الطنّان ، سهارى الجسورة ، (آكيونج) الساذج ، والسابع (شمشون) الذي يجلس مثل تمثال «غانيشا» ، وهل التاسع والعاشر غير (لينتانج) و(مهار)؟ فما حكاية كلّ منهما يا ترى؟ كانا صبيين يافعين مميزين بحقّ ، والحديث عنهما يحتاج إلى فصل خاص .

9

شامان التماسيح

في صباح أحد الأيام ، وصل (لينتانج) إلى المدرسة متأخّرًا خلافًا للعادة ، وقد ذُهلنا لما سمعنا سبب تأخّره .

– ما استطعتُ أن أعبر الطريق ، ففي وسطه سدّ طريقي تمساح جاثم هناك بضخامة شجرة جوز الهند .

– تمساح ؟ ردّد (كوتشاي) .

– رننت جرس دراجتي ، صفّقتُ ، كححتُ بصوت عالٍ وتنحنحت لعله يرحل ،ولم يتزحزح ،لم أملك حيلة سوى الوقوف كتمثال والتحدّث مع نفسي ، ضخامته والقشور النامية على ظهره دلّت بوضوح على أنه حاكم ذلك المستنقع .

– ما منعك من أن تعود أدراجك إلى البيت؟

– بعد أن قطعت منتصف المسافة إلى هنا لم أحبّذ الالتفاف والعودة بسبب ذلك التمساح الغبي .

حينها لم أستطع منع نفسي من تخيّل ما يفكّر فيه (لينتانج) في تلك اللحظة ، كلمة غائب ليست من ضمن مفرداتي ، واليوم ندرس مادّة تاريخ الإسلام ، وهي من أكثر الموادّ إثارة للاهتمام ، وأريد أن أناقش الآيات الكريمة التي تنبأت بانتصار (بيزنطة) قبل سبع سنوات من حدوث ذلك .

– ألم تحاول الاستنجاد بأحد؟ ، سألته سهارى بقلق .

– لم يكن هناك أحد ، أنا فقط والتمساح العملاق والموت المحقّق .

أجاب (لينتانج) بطريقة استعراضية ، «وبدأت أفقد الأمل ، ثم فجأة ، سمعت شيئًا يخوض في الماء عند مجرى النهر قربي ،دُهشت ، بل فزعت»!

– ما كان ذاك يا (لينتانج)؟ سأله (تراباني) بعينين متّسعتين .

– انبثق من المستنقع ما بدا أنه هيئة رجل ، وأخذ يتقدّم نحوي بخطوات متعرّجة .

– من كان؟ ، استفسر (مهار) بصوت مخنوق .

– «(بودينغا)» .

شهقنا كلّنا وكممنا أفواهنا بأيدينا ،

– خفت منه أكثر من خوفي من أي تمساح!

فهمنا ما ألمح إليه ، فالرجل الذي انبثق من بين الطحالب هو الرجل الذي لا يريد أن يعرف أحدًا ،لكن ، من في (بيليتونج) الساحلية لا يعرفه؟

– وماذا حدث؟ ، سأله بوريك بعصبية .

– مرّ بي كما لو أنني لست هناك ، ثم اقترب من الحيوان الرهيب الذي يسدّ الطريق ، لمسه! داعبه برفق وهمس له بشيءٍ ، كان ذاك غريبًا جدًا! استسلم التمساح له ، بعد ثوانٍ . . تابع (لينتانج) بصوت منخفض ، غطس في المستنقع محدثًا ضجيجًا هائلاً كالذي قد ينجم عن سقوط سبع أشجار جوز هند .

اعترانا الذهول ونحن نفكّر في كفاح (لينتانج) ليأتي إلى المدرسة ، وماذا عن (بودينغا)؟ سألناه بصوت جماعي .

استدار (بودينغا) ويمّم صوبي ، بدا جليًا أنه لم يتوقّع أي كلمة شكر ، لم أمتلك الجرأة على النظر إليه ، إلا أنه مرّ بي وأكمل طريقه .

– أكمل طريقه؟ فقط هكذا؟ سألته .

– نعم ، فقط هكذا ،لكنني أعتبر نفسي محظوظًا ، فقلائل هم الناس الذين شهدوا قوى (بودينغا) الخارقة .

مع أنني في الحقيقة لم أشهد قطّ شيئًا من قوى (بودينغا) الخارقة ، تزوّدت منه بدرسي الأوّل في الحياة عن هواجس الشؤم الداخلية المُسبقة ، بالنسبة لي ، يرمز (بودينغا) إلى كلّ الأمور المتعلقة بالشعور بالحزن .

لا أحد رغب في اتخاذ (بودينغا) صديقًا ، كان وجهه مجدورًا ومفعمًا بالندوب ، رجل في الأربعين من العمر ، اعتاد أن يغطي جسمه بأوراق شجر جوز الهند ، وينام تحت شجرة نخيل ليومين وليلتين أحيانًا متقوقعًا على نفسه مثل سنجاب ، وعندما يجوع يغوص إلى قاع البئر المهجورة عند مركز الشرطة القديم ، يلتقط بعض سمك (الحنكليس) ويأكله وهو بعد في الماء .

كان (بودينغا) مخلوقًا حرًا ، ليس من (ملايو) ولا من الصين ولا حتّى من (ساوانج) ، لم يكن أيّ شخص ، ولم يعرف أحد من أين أتى ، ليس متديّنًا ولا يستطيع الكلام ، ليس متسولًاً ولا مجرمًا ، واسمه غير مدوّن في أي من سجلات القرية ، كان أصمّ لأنه في أحد الأيام غاص عميقًا جدًا في نهر (لينغانج) بحثًا عن القصدير فنزفت أذناه .

في الوقت الحاضر يبدو (بودينغا) مثل قطعة خشب وحيدة طافية ، قريبه الوحيد الذي يعرفه أهل القرية هو والده الأبترُ ، يقول الناس إنه ضحّى بساقه في سبيل الحصول على سحر التماسيح ، كان الأب شامان تماسيح مشهورًا ، وعندما دخل الإسلام القرى بدأ الناس يقاطعون (بودينغا) ووالده لأنهما رفضا التوقّف عن تقديس التماسيح وعبادتها .

مات أبوه بعد أن ألقى بنفسه في نهر (مارانج) وجسمه ملفوف من الرأس إلى أخمص القدمين بجذور «الجاوي» ، أطعم جسده عن عمدٍ لتماسيح النهر الشرسة ، ولم يتبقّ منه إلا الأرومة التي استعاض بها

عن ساقه المقطوعة ، ومنذ ذلك الحين دأب (بودينغا) على قضاء معظم وقته وحده وإلى فترات طويلة من الليل وهو يمعن النظر في مجرى نهر (مارانج) .

في مساءٍ يوم ما تدفّق أهل القرية نحو ملعب كرة سلّة المدرسة الوطنية ، كانوا قد اصطادوا تمساحًا هاجم امرأة تغسل الثياب في نهر (مارانج) .

بسبب صغر سنّي آنـذاك ، عجزتُ عن شقّ طريقي وسط الناس المتجمهرين حول التمساح ، ولم أستطع رؤيته إلا من بين سيقانهم ، كان فمه الكبير مفتوحًا على مداه ، تدعمه قطعة حطب ، وكان بساق واحدة .

عندما شقّوا بطنه إلى نصفين عثروا على شعر وقلادة ، وحينها رأيت (بودينغا) يندفع قدمًا من بين المتفرّجين ، جلس القرفصاء إلى جانب التمساح ووجهه شاحب كالأموات ، توسّل إلى الناس مناشدًا إياهم أن يتوقّفوا عن تعذيب الحيوان ، فانتزعوا قطعة الحطب من فمه وتراجعوا إلى الوراء ، يعتقد الذين يقدّسون التماسيح أنهم عندما يموتون يتحوّلون إلى تماسيح ، لا ريب في أن (بودينغا) اعتقد أن ذلك التمساح هو ما أصبح عليه والده .

بكى (بودينغا) ، ندّ عنه نحيب موجع ، رأيت دموعه تنهمر على وجنتيه المجدورتين ، وأنا أيضًا شعرت بدموعي تنهمر على وجهي ولم أستطع حبسها .

قيّد (بودينغا) التمساح وحمل جثّة أبيه إلى نهر (لينغانج) ، سحبها على طول ضفّة النهر نحو الدلتا ، ولم يعد من يومها .

خلقت تلك الحادثة في لاوعيي نموذجًا تصويريًا للشفقة والحزن ، وفي السنين التي تلت ، كلّما واجهتُ مواقف تدمي القلب تملّكت صورة (بودينغا) حواسي .

في ذلك المساء تلقّنت من (بودينغا) درسًا عن الهواجس الداخلية المسبقة ، ولأوّل مرّة أدركتُ أن القدر قد يعامل الجنس البشري بطريقة مروّعة ، وأن الحبّ يمكن أن يكون أعمى إلى أبعد الحدود .

في حين لم يختبر (لينتانج) تجربة عاطفية مع (بودينغا) كما حدث معي ، لم تكن تلك أوّل مرة يواجه فيها تمساحًا وهو في طريقه إلى المدرسة ، وليس من قبيل المبالغة القول إن (لينتانج) كثيرًا ما جازف بحياته من أجل تحصيل العلم ، مع ذلك ، لم يفوّت يومًا مدرسيًّا واحدًا ، كان يقود دراجته كلّ يوم ثمانين كيلومترًا في رحلة الذهاب والإياب ، وإذا استمرت نشاطات المدرسة لفترة طويلة بعد الظهر ، لم يصل إلى بيته إلا ليلاً ، مجرّد التفكير في رحلته اليومية هذه لطالما جعلني أنكمش خوفًا ،

في موسم الأمطار ، ترتفع المياه التي تغمر الدروب إلى مستوى الصدر ، وعندما يواجه (لينتانج) دربًا تحوّل إلى نهر ، يترك دراجته عند شجرة في موضع عالٍ نسبيًا ، يلفّ قميصه وبنطلونه وكتبه ويضعها في كيس بلاستيكي ، ثم يعضّ على الكيس بأسنانه ويخوض في الماء سابحًا نحو المدرسة بأسرع ما يمكنه ليتفادى التعرّض إلى هجوم التماسيح .

اعتمد (لينتانج) على ساعة الطبيعة للاستيقاظ في الصباح ، لعدم وجود ساعة في بيته ، مرّةً هرع يؤدي صلاة الفجر لأنه سمع الديك يصيح ، أنهى صلاته وركب دراجته منطلقًا إلى المدرسة ، في منتصف طريق رحلته وفي وسط الغابة انتابه الشكّ لأن الجوّ كان شديد البرودة والدنيا حالكة الظلمة والغابة في سكون مطبق ، لم يسمع أصوات الطيور تغرّد للفجر ، أدرك (لينتانج) أن الديك قد صاح قبل أوانه ، وأن الوقت لم يتجاوز منتصف الليل بعد ، جلس تحت شجرة في قلب الغابة الدامسة ، احتضن ساقيه ، وقبع يرتعد بردًا منتظرًا طلوع الصباح .

في مرّةٍ أخرى انقطعت سلسلة دراجته ، فدفع الدراجة عشرات الكيلومترات ، ولما وصل إلى المدرسة كنّا نقترب من العودة إلى بيوتنا ، آخر درس يومها كان درس الموسيقا ، سرَّ (لينتانج) لأنه كان عليه أن ينشد أغنية «بادامو نيجيري» أو «من أجلك يا وطننا» ، أمام الصفّ ، كانت تلك الأغنية بطيئة وحزينة :

من أجلك يا وطننا نعطي العهد
من أجلك يا وطننا نخدم
من أجلك يا وطننا نكرّس حياتنا
أنت يا وطننا جسدنا وروحنا

ذهلنا ونحن نسمعه يغني بعاطفة جياشة ، الإرهاق الذي عاناه لم يظهر في عينيه الظريفتين ، بعد أن أنهى الأغنية مضى يدفع دراجته عائدًا إلى البيت على طول أربعين كيلومترًا .

تهيأ لوالد (لينتانج) أن ابنه سيتخلّى عن المدرسة خلال الأسابيع القليلة الأولى ، ثم ثبت له أنه على خطأ ، فحماسة (لينتانج) لم تخمد قطّ ، غدا مدمنًا على فكّ رموز المعرفة ، لم يكن ينعم بالراحة عندما يعود إلى البيت ، بل ينضمّ إلى بقية أطفال القرية الذين يماثلونه سنًا ليعمل حمّال جوز هند ، ذاك هو الثمن الذي دفعه مقابل امتياز ارتياده المدرسة . عندما كان (لينتانج) في الصفّ الأوّل طلب مرةً من أبيه أن يساعده في حلّ مسألة حسابية بسيطة ، «تعال بابا ، ما حاصل أربعة ضرب أربعة؟» ذرع الأب الأرض ذهابًا وإيابًا ، حدّق بأسى من النافذة في بحر

جنوب الصين العظيم ، مُعملاً جهده في التفكير ، ولما ما عاد (لينتانج) ينظر ، تسلّل بهدوء من الباب الخلفي وركض مثل الريح عبر سيقان الحشيش الطويلة ، جرى الرجل الصّنوبرة بسرعة قياسية وبخفّة غزال ليطلب المساعدة من الناس في مكتب القرية ، وبعد وقت قصير ، مثل وميض البرق ، تسلّل عائدًا إلى البيت ووقف فجأة على أهبة الاستعداد أمام ابنه .

«أررر . . . أررر . . . أربعة عشر يا ولدي ، هذا مؤكّد ، لا أكثر ولا أقلّ» أجاب وهو يلهث محاولاً التقاط أنفاسه ، وفي الوقت نفسه ترتسم على وجهه ابتسامة تشعّ فخرًا .

نظر (لينتانج) بعمق في عيني أبيه وشعر بوخز في قلبه ، منذ ذلك اليوم ازداد لهيب إقباله على المدرسة اشتعالاً ، كان جسمه صغيرًا جدًا على دراجته ، ولذا لم يستطع الجلوس على سرجها ، بدلاً من ذلك اعتاد الجلوس على القضيب الذي يصل السرج بذراعي الدراجة ، رؤوس أصابع قدميه لا تكاد تبلغ الدواستين ، على هذا المنوال سلك طريقه ببطء يوميًا ، جسمه يقفز صعودًا ونزولاً على القضيب الفولاذي وهو يعضّ شفتيه مستجمعًا قوته ليصارع الرياح .

يقع بيت (لينتانج) عند طرف البحر ، كانت الدار كوخًا يقوم على ركائز متينة عالية تحسّبًا لارتفاع مستوى البحر كثيرًا جدًا ، السقف مصنوع من سعف نخيل «الساغو» والجدران من لحاء شجر «الميرانتي» ، وكل ما يجري في الكوخ يمكن رؤيته من الخارج لأن جدران اللحاء القديمة التي مرّت عليها عشرات السنين ، متكسّرة ومهترئة مثل الطين في موسم الجفاف ، المساحة في الداخل طويلة وضيقة وتضمّ بابين ، واحد في

المقدّمة والثاني في المؤخّرة ، لم تقفل أي من النوافذ أو الأبواب ، كان أهل البيت يربطون الأطر ليلًا بخيوط القنّب المجدول رخيصة الثمن .

عاش أجداد (لينتانج) من أبيه وأمه معهم في تلك الدار ، كانت بشرة الأجداد مجعّدة إلى درجة أن المرء إذا شدّها يستطيع احتواءها بكفه ، ويوميًا ينحني الأجداد الأربعة على وعاء غربلة ليلتقطوا السوس من أرز الدرجة الثالثة ، الصنف الوحيد الذي يمكنهم تحمّل ثمنه ، ولطالما قضوا ساعات في تلك المهمّة الشاقّة ، فالأرز كان فاسدًا إلى هذا الحدّ .

ضمّ البيت أيضًا شقيقي والد (لينتانج) الأصغر : أحدهما شاب يتيه في الطرقات طوال اليوم لأنه مريض عقليًا ، والآخر عاجز عن العمل ، مع هؤلاء الأشخاص ، ومع (لينتانج) وشقيقاته الخمس وأمّه كان البيت الطويل الضيق مزدحمًا للغاية ، مجموع الأشخاص هناك أربعة عشر وكلهم اعتمدوا على الأب في تأمين المعيشة .

انتظر والد (لينتانج) يوميًا أصحاب القوارب من الغرباء أو الجيران ليعطوه عملاً ، لم يحصل على نسبة مئوية مما يصطاده ، ولكن تحصيل أجره اعتمد دائمًا على قدراته البدنية ، كان رجلاً يكسب قُوته من خلال بيع طاقته الجسدية .

لا تسنح الفرصة ل(لينتانج) كي يتفرّغ للدراسة إلا في وقت متأخّر من الليل ، كان من الصعب عليه بمكان العثور على بقعة فارغة في البيت بسبب ازدحامه ، هذا فضلاً عن أنه عليهم جميعًا تشارك المصباح الزيتي ، مع ذلك ، وحالما يمسك كتابًا ينطلق ذهنه بعيدًا متسلّلاً من بين شقوق جدران اللحاء المتآكلة ، بالنسبة إليه ، كانت الدراسة وسيلة ترفيه تنسيه صعوبات الحياة ، وكانت الكتب كالماء من بئر زمزم في الحرم المكي ، تساعده على تجديد طاقته ليقود دراجته عكس اتجاه الرياح يومًا بعد يوم .

ثم ، في ليلة سحرية وتحت بصيص المصباح الزيتي يرافقه إيقاع المدّ والجزر ، تصفّحت أصابع (لينتانج) النحيلة نسخة مصوّرةً من كتاب قديم بعنوان «علم الفلك والهندسة» ، وسرعان ما انغمس الفتى دفعة واحدة في بحر كلمات «جاليليو» ضدّ علم الكونيات كما ناقشه «أرسطو» ، انتشى بأفكار الفلكيين القدماء المجنونة الذين أرادوا قياس المسافة من الأرض إلى مجرة (أندروميدا) والسديم الثلاثي ، شهق لمّا اكتشف أن الجاذبية يمكن أن تحني الضوء ، وأدهشته الكائنات المتنقّلة في زوايا سماوات الكون المظلمة والتي ربما لم تزرها إلا أفكار «نيكولاس كوبرنيكوس» .

عندما وصل إلى الفصول التي تتحدّث عن علم الهندسة ، استوعب (لينتانج) بسرعة فائقة التحلّل المعقد جدًا للأسطح رباعية الأبعاد ومسلّمات المتّجهات ونظرية «فيثاغورس» ، هذه الموادّ كانت أكبر بكثير من عمره وتحصيله العلمي ، بيد أنه أمعن التفكير في تلك المعلومات تحت بقعة الضوء الخافت المنبعث من المصباح الزيتي ، وفي تلك اللحظة بالضبط ، في جوف الليل ، تفجرّت تأملاته واختبر لحظةً سحريةً ، فعلى الصفحات القديمة أمام وجهه ، أضاءت الأرقام والحروف وهي تحلّق وتلجُ رأسه ، كان كما لو أنه جالس إلى الطاولة نفسها مع روّاد الهندسة .

في اليوم التالي في المدرسة استغرب (لينتانج) حيرتنا في فهم إحداثية ثلاثية الأرقام .

ما سبب ارتباك أطفال القرية هؤلاء؟ تساءل صوت قلبه .

تمامًا كما قد يتعذّر على المرء إدراك ما هو عليه من غباء أحيانًا ، لا يدرك بعض الناس في كثيرٍ من الأحيان أنهم من النخبة المختارة ، وأن الله قدّر عليهم الاقتران بالمعرفة .

10

بطل لمرّتين

حدث هذا في شهر آب – شهر حافل بالأخبار السيئة دائمًا من وجهة نظرنا .

ما فتئت مدرستنا تتعرّض لمشكلة إثر مشكلة ، كانت الضائقة المالية رفيقنا الدائم على مرّ السنين ، وافترض الناس دائمًا أن مدرستنا ستنهار في غضون أسابيع ، مع ذلك ، والفضل ل(بو مُس) و(پاك هرفان) ، نظرنا إلى المدرسة على أنها أفضل شيء يمكن أن يحدث في حياتنا ؛ أفضل بكثير جدًّا من أن نصبح حمّالين ، أو نشتغل بِبَشْر جوز الهند ، أو نعمل رعاة أو جامعي ثمار الفَليفلة أو حرّاس متاجر ، كنّا مثلاً حيًا على المثل القائل «ما لا يقتلك يجعلك أقوى» ، وفي حين ما بقي عددنا في الصفّ لا يتجاوز العشرة ، بعد سنوات عدّة من عدم وجود قادمين جدد ، جاءتنا دفعة تلاميذ أخرى لصفوف أدنى ، لم يصلوا إلى العدد الذي أملنا به ولكنهم هناك كانوا .

في جميع الأحوال لم تبلغ أي محنة تعرّضنا لها صعوبة هذه المحنة ، محنة انعطاف دراجة «دي كي دبليو» القديمة بعادمها الهادر نحو مدرستنا ، أووه . . آآه . . ها هو قد عاد .

كان راكب الدراجة النارية رجلاً كبير السن ضئيل البُنية وسميك النظارات ، جبهته عريضة ولامعة ، الأوردة النابضة في صدغيه أوحت أنه غالبًا ما فرض على الآخرين جدول أعماله ، ولا تخفى على أحد حقيقة أن الأشخاص الذين يدأبون على توبيخ الآخرين يفقدون عادةً قدرتهم

على التعامل بخلُق حسن ، اشتهر هذا الرجل بعدم مرونته في اللجوء إلى الحلول الوسط ، كلمة واحدة منه يمكن أن تغلق مدرسة بأكملها ، يمكن أن تفصل المديرين ، يمكن أن تحرم الأساتذة من الترقية إلى يوم تقاعدهم ، أو ربما تنفيهم إلى جزيرة معزولة قد لا يظهر لها أثر على الخريطة ، ليعلّموا الأطفال البدائيين وقرود المكّاك ذات الذيول القصيرة ، مجرد لمح نظارة هذا الرجل جعلت فرائص جميع المعلّمين في (بيليتونج) ترتعد ، إنه السيد (صمديكون) مفتش المدارس العام .

قبل سنوات ، في ذلك اليوم المدرسي الأول ، نجحنا في الانفلات من بين أصابع السيد (صمديكون) عندما أنقذنا هارون بإكمال عددنا إلى العشرة ، لم يُسرّ السيد (صمديكون) لمّا حدث هذا ، أراد أن يغلق مدرستنا منذ بعض الوقت ، لأنها سبّبت عملاً إضافيًا مزعجًا للمسؤولين في وزارة التربية والتعليم ، طالبوا مرارًا وتكرارًا بإجلائها من على وجه البسيطة ، والسيد (صمديكون) نفسه تبجّح مرةً أمام مسؤول أعلى منه بقوله : «إيه ، سأتكفّل بمشكلة مدرسة المحمدية ، بركلة واحدة أستطيع أن أرديها أرضًا» .

وهكذا تمخّض ذهن السيد (صمديكون) عن شرط دبلوماسي ووجيه ليغلق مدرستنا ، الشرط هو توافر عشرة تلاميذ ، شرط تحقّق على نحو مفاجئ في اللحظة الأخيرة بقدوم هارون ، وصل انزعاج السيد (صمديكون) من مدرستنا أبعد الحدود ، خصوصًا من هارون .

كان هو شخصيًا المسؤول عن التأكّد من خضوعنا للامتحانات في مدرسة أخرى لأن المسؤولين اعتبروا مدرستنا غير مؤهّلة لإدارة امتحاناتها الخاصة ، ولم يشعر بالرضا عنّا أيضًا لأننا لم نحصل على أي جائزة ، ففي ظلّ نظام التعليم التنافسي الحالي ، يمكن أن تصِمَ مدرسة كمدرستنا النظام كلّه بعار العجز .

غدا وجه (بو مُس) بشحوب الأشباح عندما وصل السيد (صمديكون) في زيارة تفتيش مباغتة ، وإمعانًا في زيادة سوء مجرى الأمور ، كانت وحدها في المدرسة بسبب المرض الذي أقعد (باك هرفان) عن الحضور طوال الشهر الماضي ، ومرضه ، حسب ما قال المعالج المحلّي يعود إلى تنشّقه غبار الطباشير الرخيصة لعشرات السنين .

استرق السيد (صمديكون) النظر داخل حجرة الدراسة ، حالما رأى خزانة العرض الفارغة ارتسم على وجهه تعبير استخفاف ، فقد درج على رؤية الجوائز في خزانات العرض .

حتى قبل أن يحدث أي شيء آخر ، ارتكبت (بو مُس) خطأ فادحًا بسبب ما اعتراها من قلق بالغ ، «رجاءً تفضّل يا پاك ،» قالت بأدب ،

نظر إليها السيد (صمديكون) شزرًا وزمجر ، «ادعيني السيد»!

كان معروفًا لدى الجميع أنه يرفض مناداته بلقب پاك (صمديكون) ، ربما يعود هذا إلى تأثير أساتذته الهولنديين ، أو ربما لأنه يريد الحفاظ على سلطته .

على أي حال ، ومهما كان السبب ، أصرّ على أن يقال له «السيد» ،

أخرج السيد (صمديكون) استمارة تفتيش المُنشأة ، شخر ونخر مرّة تلو مرّة ليجعل خيبة أمله ظاهرة للعيان ، في عمود لوح الطباشير والأثاث اضطر إلى إضافة خيار جديد : تحت (ه) سيئ أضاف (و) سيئ جدًا ، في عمود الرموز الوطنية ؛ صور الرئيس ونائب الرئيس والشعار الوطني ، وفي عمودَي عدّة الإسعافات الأولية ووسائل الإيضاح اضطرّ إلى إضافة خيار جديد مرة أخرى : (و) معدوم ، وفي عمود المرحاض ومرافق الإضاءة أضاف (و) مصادر طبيعية .

ثم جاء دور فقرة حالة التلاميذ ، أخذ نفسًا طويلاً وعميقًا ونظر إلينا ،

كان معظمنا لا ينتعل أحذية ، وثيابنا البالية تنقصها بعض الأزرار ، أما قميص (مهار) فبلا أزرار على الإطلاق ، تسمّر السيد (صمديكون) في أرضه لما رآني أنا و(لينتانج) نتقلّد مقلاعين ، تهتَهَ من مرأى بقع الجوافة تلطّخ قميص (كوتشاي) ، في عمودَي حالة التلاميذ وتكامل هيئاتهم ، لم يكن الخيار (و) سيئ للغاية كافيًا ليصِفنا ، فأضاف خيارًا جديدًا من ابتكاره (ز) مُزر .

سألَنا السيد (صمديكون) : «من لديه آلة حاسبة ، وبوصلة وأقلام تلوين»؟

لم نجب ولا بكلمة ، قطّب (مهار) جبينه ، كنّا حاليًا في الصفّ الخامس ولا فكرة لدينا عن أي من تلك الأشياء .

التفت السيد (صمديكون) إلى (بو مُس) ، «(بو مُس) ، لم أر في حياتي صفًا مزريًا كهذا ، أتُسمّين هذه مدرسة؟ هذا المكان لا يختلف عن حظيرة حيوانات»!

ازداد شحوب (بو مُس) التي وجدت نفسها محشورة في الزاوية ، «أطفالك هؤلاء يشبهون صيادي الغزال الفأر لا التلاميذ»!

ابتلعت (بو مُس) الإهانة ، لكن بدا واضحًا أن الإهانة لم توهن ولا قيد أنملة من اعتزازها بنا .

– لا خيار آخر ، لا بُدّ أن تُغلق هذه المدرسة .

صُعقت (بو مُس) ، كانت تستطيع الجلوس وتقبّل الإهانات ، أمّا أن تسمح بإغلاق مدرستها فهذا ضرب من المستحيل .

– مستحيل يا سيد ، مضى علينا ونحن ندرس هنا خمس سنوات . كانت (بو مُس) شجاعة حقًا ، لم يحدث من قبل قطّ أن واتت الشجاعة أي معلّم ليتحدّى السيد (صمديكون) .

– ماذا عن أطفال القرية هؤلاء؟ تابعت (بو مُس) .

اهتاج السيد (صمديكون) :

– هذه مشكلتك لا مشكلتي! انقليهم إلى مدارس أخرى .

– مدارس أخرى؟ أقرب مدرسة حكومية تقع في (تانجونج باندان) ، من المستحيل فصل هؤلاء الصغار عن أهاليهم ، ولا يمكنهم أن يتحمّلوا نفقات ارتياد مدرسة هناك ، مدرسة الـ (پ ن) قريبة إلا أنهم هناك يرفضون قبول أطفال على هذه الدرجة من الفقر .

تعكّر مزاج السيد (صمديكون) كثيرًا فأخذ يرغي ويزبد ، أردنا أن نقف إلى جانب (بو مُس) لكن الخوف لجمنا كلّنا ما عدا هارون ، هارون الذي ارتسمت الابتسامة على وجهه طوال الوقت من غير أن يفقه شيئًا مما كان يجري .

– لقد استوفينا شرط عشرة تلاميذ ، وإذا كانت المسألة تتعلّق بعدّة الإسعافات الأولية ، فنحن . . . .

– ليس هذا فقط! قاطعها السيد (صمديكون) ، «هناك هارون أيضًا!»

استغلقّ الكلام على (بو مُس) ؛ فقد تطرّق الرجل إلى نقطة حساسة ، وموضوع هارون شكّل لها دائمًا موطن ضعف ،ولم تتردّد يومًا في الدفاع عنه .

على العكس من (بو مُس) سرّ هارون كثيرًا لّما سمع اسمه يُذكر ،

– ماذا عن هارون؟ سألت (بو مُس) أخيرًا بنبرة دفاعية .

– لا يمكنه ارتياد هذه المدرسة ، إنها ليست المكان المناسب له ، ينبغي أن يذهب إلى مدرسة خاصة بالمعوقين ، في جزيرة (بانجكا) .

حاولت (بو مُس) التمسّك بهدوئها ، كنا نعرف مدى حبّها لهارون ، وأدركنا في الوقت نفسه أن السيد (صمديكون) قد اتخذ قراره وأن (بو مُس) ليست إلا معلّمة في مدرسة قرية .

انتفخت أوداج (بو مُس) ، «يا سيد» قالت بصوت ضعيف ، «هذه المدرسة هي أفضل مكان لهارون ، وهو يبذل جهده في الدرس هنا ، كما أنه سعيد للغاية مع رفاقه ، رجاءً لا ترسله بعيدًا» .

لم يتأثّر السيد (صمديكون) ، «الدرس؟ ما الممكن أن يدرسه هنا؟»

كان هارون في الواقع يتلقّى دائمًا معاملة خاصّة ، وكلّما ترفّعنا صفًّا ترفّع معنا على الرغم من عدم حصوله على تقرير رسمي .

أرادت (بو مُس) أن توضح أن حالة هارون قد تحسّنت كثيرًا في المدرسة ، وأنه عثر على السعادة معنا ، لم تكن ضليعة في علم النفس ، لكنها رأت أن البيئة الطبيعية هي ما يحتاجه الأطفال المعوقون مثل هارون ، إلا أن فمها بقي مغلقًا .

طلب السيد (صمديكون) من هارون أن يأتي إليه ، لم تكن المحاباة شيئًا يعرفه هارون ، حاول الصبي أن يحيي السيد (صمديكون) بطريقة ودّية ، لم يعرف أن مصير مدرستنا بين يديه ، من غير أن يُسأل وفيما هو يحاول الاتكاء على كتف السيد (صمديكون) ، قصّ هارون حكايته الخالدة عن قطته ذات الألوان الثلاثة التي وضعت ثلاث قطط في اليوم الثالث من الشهر ، حتّى (بو مُس) حاولت جاهدة إسكاته .

– طيب ، أريد أن أعرف ماذا تعلم هارون في السنوات الخمس الماضية؟

شدّد السيد (صمديكون) بوضوح على جملة في السنوات الخمس الماضية لأنه أراد أن ينكر ما بذلته (بو مُس) من مجهود مع هارون ، وأراد أن يفتّ في عضدها بالبرهنة على أن المدرسة ليست مناسبة لهارون ، هارون ، بقلبه الأبيض بقي خليّ البال وغافلاً عن المعركة الجارية ، شعّ وجهه فخرًا لأنه يُسأل ، شعر بأهميته ، «ما هي طموحاتك المستقبلية يا هارون»؟

نظر هارون إلى السيد (صمديكون) بجدّية عظيمة ، ابتسم بينه وبين نفسه ، كان السؤال بالنسبة إليه مثل لعبة مسلية ، طموحات؟

– ما يعنيه يا هارون ، هو ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟ أتريد أن تصبح طبيبًا أو مهندسًا أو ربّما طيارًا؟ أوضحت (بو مُس) بلطف .

– «أووووه!» هتف هارون بنبرة شخص يعود بذهنه إلى الوراء سابرًا أغوار وعيه بعد غيبوبة دامت أسبوعًا كاملاً .

– «شكرًا يا إيبوندا غورو ،» تابع هارون وهو يرفع رأسه وينظر إلى السيد (صمديكون) ، أشرق بريق في عينيه ، ثم فجأة عاد وطأطأ رأسه ، بدا كما لو أنه يعرف الجواب لكن الحياء يمنعه من البوح به .

– ماذا تريد أن تصبح يا هارون؟ ، سأله السيد (صمديكون) من جديد .

أشار هـارون بخجل إلى (تراپاني) ، نظر السيد (صمديكون) و (بو مُس) إلى (تراپاني) ، ارتبك (تراپاني) .

– لا تخجل ، داهنه السيد (صمديكون) .

أشار هارون إلى (تراپاني) مرةً أخرى ، لم يفهم أحد تصرّف هارون الغريب ذاك ، أما أنا فعرفت ، في يوم ما ، ونحن في الصفّ الثالث ، دعاني هارون لنتسلّق معًا قمّة مئذنة جامع الحكمة ، أراد مكانًا هادئًا لا أحد فيه ليساررني بطموحاته المستقبلية ، لم يأتمن غيري بهذه المعلومة ، ولأحافظ على السرّ رشاني بثلاث درنات «كلاديوم» مسلوقة ، وضعت يدًا على الوجبة الثلاثية الخفيفة ورفعت الثانية عاليًا في الهواء لأقسم على عدم إفشاء سرّه .

بدا لي ، عندما أشار هارون إلى (تراپاني) ، أنه قد أفشى بنفسه السرّ ورفع الغطاء عن طموحه الخفي ، فاعتبرت أن قيامه بهذا يحرّرني من

قسم درنات «الكلاديوم» ، وإذ رأيت السيد (صمديكون) يحثّ هارون بلا هوادة ليجيب لم أستطع منع نفسي من الكلام .

– عندما يكبر يريد هارون أن يصبح (تراباني) ، قلت .

ذُهل الجميع ، ابتسم هارون ابتسامة عريضة وطأطأ رأسه وأخذ جسمه يهتزّ وهو يحاول جاهدًا كبت ضحكه .

نال (تراباني) إعجابنا كلّنا ؛ لأنه كان أكثر واحد في مجموعتنا تهذيبًا وأناقة ، ولذلك طمح هارون بصمت أن يصبح (تراباني) عندما يكبر ، المشكلة طبعًا هي أن هذا الطموح صعب التحقيق إلى حدّ بعيد ، نظرًا إلى أن هارون أكبر بكثير من (تراباني) .

شزر السيد (صمديكون) (بو مُس) بنظرة يقدح منها الشرر ، ومع ذلك سعى إلى المزيد .

– طيب يا هارون ، اختبار أخير ، ما حاصل جمع اثنين واثنين؟

هذه المرّة تمادى كثيرًا في إلحافه ، اختار السيد (صمديكون) عن عمد سؤالاً بمنتهى السخف يستطيع حتى الأطفال الذين لم يدخلوا المدرسة بعد أن يجيبوا عليه ، كلّ ذلك للإمعان في إهانة (بو مُس) .

تقدّم هارون من السيد (صمديكون) بخطى واثقة ، «يا سيد» قال بهدوء : أنت تمازحني ، أليس كذلك؟

– لا يا هارون ، هذا سؤال جديّ ، أريد أن أعرف ما تعلّمت طوال هذا الوقت .

– أوه يا سيد ، لا ريب في أنك تمازحني! هذه مسألة حسابية بسيطة ، لقد سبق أن تعلّمت الجمع ، وأستطيع أن أصل في الجمع إلى المئات ، لا مشكلة!

– عظيم يا هارون .

تشنّج وجه السيد (صمديكون) وهو يرى ثقة هارون ، أدرك أنه ارتكب خطأ فادحًا ، السؤال سهل للغاية ، ندم على طرحه هذا السؤال السهل ، على الأقلّ كان يمكنه أن يطلب حاصل ضرب اثنين في اثنين .

ضمّت (بو مُس) ذراعيها إلى صدرها ، كانت متوترة ، لكنها آمنت أن هارون قادر على الإجابة ، لم تكلّ قطّ عن العمل معه بجهد على درس الجمع ، صلينا إلى الله عزّ وجلّ ، يحدونا الأمل في أنها محقّة ، غدت عيون سهارى و(مهار) كالزجاج ، كنّا مهووسين بحبّ مدرستنا الفقيرة ولم نشأ أن نفقدها ، واعتقدنا أن هارون وللمرّة الثانية سينقذنا ، أنه بطلنا المجهول .

– طبعًا أعرف ، أجاب وهو يكتّف ذراعيه ، «سهل للغاية» .

– كم يا هارون؟

ارتفعت ذراع هارون عاليًا وهو يصيح واثقًا من نفسه ، «ثلاثة»